الشايقية

وصف لقبائل الشايقية وتاريخ مديرية دنقلة

من القرن الرابع عشر الى القرن التاسع عشر

تأليف

و . نكولز

نقله الى العربية وقدم له وعلق عليه

دكتور عبد المجيد عابدين

الطبعة الاولى

الثمن ١٢ قرشا

الشايقية

وصف لقبائل الشايقية وتاريخ مديرية دنقلة
من القرن الرابع عشر الى القرن التاسع عشر

تأليف

و . نكولز

نقله الى العربية وقدم له وعلق عليه

دكتور عبد المجيد عابدين

مقدمة المترجم

رأيت أن أنقل هذا الكتاب الى قراء العربية ، وهو كتاب طبعه مؤلفه مستر نكولز سنة ١٩١٣ ، وصار منذ ذلك الوقت مرجعا لكل من يبحث فى قبائل الشايقية وتاريخها . وقد جمع المؤلف فيه الروايات الوطنية التى يرويها الشايقية أنفسهم ، وقارن بينها وبين أقوال المؤرخين والرحالة الذين زاروا بلاد الشايقية أو تحدثوا عنها . وقد تقبل بعض هذه الروايات ، وشك فى بعضها . غير أنه مما يعيب الكتاب — فى نظرنا — بعض أقوال جمح بها قلمه ، فأساء فيها الحكم أحيانا ، وأخطأته لباقة العبارة أحيانا أخرى . وقد علقنا على هذه الأقوال فى مواضعها من هوامش الكتاب .

أضف الى ذلك أن الكتاب لم يتعرض لجوانب من تاريخ الشايقية كالبحث فى أصل الشايقية ، وهذا موضوع شغل الذين كتبوا عن الشايقية بعد زمن تأليف هذا الكتاب . ونرى اتماما للفائدة أن نعرض لأهم الآراء فى ذلك الصدد . وبين أيدينا أربعة آراء فى أصل الشايقية نلخصها فيما يلى :

١ — يرى ترمنجهام (الاسلام فى السودان ص ٨٨) أنهم ربما كانوا أصلا من البجة . ويعتمد فى هذا على ما رواه المقريزى عن ابن سليم الأسوانى من أن الزنافج ، وهم فريق من البجة ، هاجروا فى عصور قديمة الى بلاد النوبة واستقروا هناك . واحتفظوا بلغتهم الخاصة فلم تختلط بلغة النوبة . ثم لاحظ ترمنجهام أن جميع أسماء قبائل الشايقية تنتهى بالمقطع (آب) وهو مقطع لفظى مأخوذ من لغة البجة .

وزعم ترمنجهام هذا ، فى نظرنا ، لا ينهض به دليل . فان انتهاء اسم القبيلة بمقطع من لغة البجة ليس دليلا على أن القبيلة بجاوية الأصل . ولا سيما اذا عرفنا أن هذا المقطع يدخل فى أسماء كثير من القبائل العربية التى تسكن فى أقاليم مختلفة من السودان .

٢ ــ ويرى ماكمايكل (تاريخ العرب فى السودان حـ ١ ص ٢١٣ وما يليها) أنه من المحتمل أن يكون فريق من هذه القبيلة كان فى الأصل من بقايا الجنود المرتزقة من الترك والألبان والبشناق الذين كانوا يؤلفون الحاميات والحرس فى بلاد النوبة منذ غزو السلطان سليم العثمانى (١٥١٧ م) وقد استقر عدد منهم فى النوبة .

وقد استبعد الباحثون اليوم هذا الرأى . فقد رده كراوفورد (فى مملكة الفونج فى سنار ص ٤٤) فذكر أن هنالك اعتراضا قويا ضد هذا الرأى ، وهو أن سليما العثمانى لم يغزُ هذه المنطقة ولم يقم عليها حراسا ولا حاميات . وأن المناطق التى قامت على حراستها فئات من هؤلاء ، وهى الواقعة بين الشلالين الأول والثالث ، لم تنتج سلالة من السكان عندها من الخصائص ما نجده عند الشايقية . ورد الدكتور عوض (السودان الشمالى ص ١٨٥) هذا الرأى بقوله : (مما يؤسف له أنه ليست لدينا دراسة للشايقية بواسطة رجل من علماء الأجناس حتى نستطيع بالدراسة العلمية للمقاييس ، وعلى الأخص مقاييس النسبة الرأسية أن نحكم على وجه الشبه بين الشايقية وأولئك الجنود الذين اذا كانوا حقيقة لهم نسب ألبانى أو تركى أو بشناق فان هذا كفيل برفع النسبة الرأسية . ومثل هذا الاختلاط يتنافى مع ما نعرفه من صفات الشايقية الجسدية ، كنحول الجسم والوجه وشكل العيون . أما بروز الأنف فمعروف لدى كثير من العرب حتى فى السودان نفسه) .

٣ ــ ويرى ڤرنـ (وهو رحالة ألمانى زار السودان فى خلال سنتى

١٨٤٠ ، ١٨٤١) أن الشايقية ربما كانوا فى الأصل طبقة من محاربى المصريين القدماء أو جماعة من سلالة المحاربين الثائرين الذين تحدث عنهم هيرودت المؤرخ فذكر أنهم كانوا جنودا فى جيش فرعون ثم ثاروا ورفضوا العودة الى مصر بعد أن هاجروا منها الى الجنوب . وكان هذا فى عهد أبسماتيك . وزعم هيرودوت أن عددهم كان مائتين وأربعين ألفا على وجه التقريب ، ويقول بلينيوس المؤرخ (٧٠ م) أنهم فروا من وجه أبسماتيك وسكنوا فى مناطق قريبة من مروى القديمة (راجع بحثا قدمناه للجمعية التاريخية السودانية بعنوان (ميلاد سوبا) المجلد الأول ــ الجزء الثانى من أعمال الجمعية) .

ويؤيد قرن هذه النظرية بعدة ملاحظات : (١) موقع بلاد الشايقية قريبا من مروى القديمة التى حموها من غارات برابرة الجنوب (٢) والنزعة العسكرية المتأصلة فى نفوس الشايقية . (٣) وكونهم غير خاضعين لزعيم واحد ، بل كانوا دائما يعيشون أحرارا فى ظل ملوك صغار . ولعل الأسر الحاكمة فيهم يمثلون طبقة السادة المصرية القديمة التى لم تعترف بسلطان أحد سوى ملوك اثيوبيا . فلما زال ملكهم صاروا أمراء مستقلين كما حدث لقواد الاسكندر المقدونى بعد وفاته (٤) وعادة الشايقية فى تقصير شعر رأسهم وتلك عادة مصرية تخالف العادة السائدة عند العرب والنوبيين .

ويضيف ماكمايكل ملاحظة أخرى تؤيد نظرية قرن وهى (٥) ما شاهده الرحالة الفرنسى كايو من أن الشايقية فى اقليم الجزيرة يقيمون نصبا على صورة انسان يعين حدود الجهات التى غزوها . ويقول ماكمايكل ان هذه العادة بلا شك مقتبسة من الفراعنة الذين كانوا يقيمون تمثالا على حدود فتوحاتهم (عوض ١٨٤ ، ماكمايكل ١ : ٢١٣ وما يليها) .

٤ — وترى الروايات الوطنية التى يتداولها الشايقية أنفسهم أنهم من أصل عربى . وهذا الرأى لم يقم ضده دليل قوى الى الآن . فقد رأينا فى الرأيين الأول والثانى ضعفا ظاهرا . أما الرأى الثالث (رأى الرحالة الألمانى ڤرن) فاننا لا ننكر ما فيه من وجاهة ، وهو فى الوقت نفسه لا يتنافى مع عروبة هذه القبيلة ، بل يؤيدها . فقد أشار ڤرن الى هذه الطبقة من المحاربين الثائرين الذين هاجروا الى الجنوب من مصر القديمة . والعلماء مختلفون فى أصل هذه الطبقة . وقد رجحنا فى بحثنا « ميلاد سوبا » الذى أشرنا اليه فيما سبق ، أن هذه الطبقة كانوا من عـرب الأراميين الذين كانوا يعملون فى مصر جنودا مرتزقة فى عهد بسماتيك الثانى وكانوا قد عهد اليهم فى محاربة المناطق الجنوبية (ص ٢ — ٤) . وعلى هذا يكون رأى ڤرن فى الواقع مؤيدا للروايات الوطنية الشايقية ، اذ تكون القبيلة فى الأصل ، من هؤلاء العرب الذين هاجروا من مصر الفرعونية بعـد أن استقروا فيها فترة من الزمن عملوا فيها فى جيش فرعون .

فاذا وجدنا فى عادات القبيلة آثارا مصرية ، فمن اليسير ردها الى تلك المؤثرات المصرية التى عملت فى هؤلاء العرب فى خلال اقامتهم فى مصر . فلما هاجروا الى الجنوب حملوا معهم هذه المؤثرات .

ولسنا ننكر مع ذلك أن مجاورة الشايقية لعناصر افريقية وحامية فى موطنهم الجديد ، ودخول هجرات عربية جديدة بعد الاسلام فى السودان واختلاط أصولهم بدماء عربية حديثة جاءت اليهم من الشمال أو الشرق — كل ذلك قد أحدث آثارا فى عاداتهم ولغتهم على مر العصور ، ولكنهم فيما يظهر لم يسمحوا للسلالات الجنوبية بأن تمتزج بدمائهم ، لذلك احتفظوا بلون بشرتهم الذى يقرب من لون المولدين .

الخرطوم فى نوفمبر ١٩٥٦

عبد المجيد عابدين

مقدمة المؤلف

كنت قصدت فى بادىء الأمر الى تأليف بحث واف عن تاريخ السودان الشمالى من العصر المسيحى الى وقتنا هذا . وكان من برنامج هذا البحث أن يتألف من ثلاثة أقسام : الأول الممالك النوبية . الثانى : الفونج والشايقية . الثالث : السيطرة التركية .

ولكن الزمن الذى أتيح لى لم يكن كافيا لتنفيذ خطتى هذه .

ولذلك عقدت النية على أن أحصر جهدى فى القسم الثانى من البحث الآنف الذكر . وكانت النتيجة هى هذا الكتيب الذى أرجو أن يحقق فائدة كافية فى تاريخ أشهر ركن من أركان السودان ، حتى يتسنى فى المستقبل القيام بأبحاث أخرى مستمدة من الروايات التاريخية المسجلة عن هذه المنطقة .

ولما كانت المخطوطات الوطنية قد أتلفت اتلافا يكاد يكون تاما فى أثناء ثورة الدراويش ، لم يكن بين يدى المؤرخ الا مادة يسيرة يستمد منها البحث ، والا أن يعتمد اعتمادا كبيرا على الملاحظات العابرة التى دونها الرحالة الذين زاروا هذه البلاد أو مروا قريبا منها .

والروايات الوطنية التى لا تؤيدها الوثائق التـاريخية ، لا يمكن الاعتماد عليها ، فهى تتطلب من الباحث غربلة وتمحيصا . وذلك بسبب تلك الخيلاء التى هى غريزة متأصلة فى أهالى السودان . *

---

* هذا حكم جائر على أهالى السودان . ولو أنصف الباحث لقال ان الروايات الوطنية بما فيها من مبالغات أحيانا موجودة عند كل الشعوب دون استثناء ، وأنها تؤلف مجموعة التراث القومى الذى يعتزون به ، ويتخذون منه مثلا عليا للبطولات بأنواعها . واذا فرضنا ان شعبا قد خلا من الروايات الوطنية ، وهذا بعيد جدا ، فهو شعب لا مجد له ولا تراث . ولسنا بحاجة الى أن نذكر هذا المؤلف بأنه قد استغل فى بحثه هذا تلك الروايات التى يعيبها ويعيب أهلها (المترجم) .

فكل فرد مواطن ، مهما يكن أصله الذى ينتسب اليه ، يحاول أن يثبت انه ينحدر من أشرف جماعة عربية ، وأن قبيلته التى ينتمى اليها تتبوأ مكانة ممتازة ، وتلعب دورا كريما فى تاريخ السودان .

وختاما أقدم شكرى الخالص للكابتن أ . س . جاكسون ، والكابتن ج . س . سايمس ، ومحمد بك السيد للمساعدة القيمة التى قدموها لى .

و . نكولز

الأبيض — كردفان ١٩١٣

الفصل الأول

« سقوط الممالك النوبية وقيام الفونج »

تعد الشايقية من أهم قبائل السـودان الشمالى من وجهة النظر التاريخية . وترتبط هذه القبيلة بتاريخ السودان الشمالى ارتباطا وثيقا من القرن الخامس عشر الى القرن التاسع عشر . ولا يعزى هذا الارتباط الى الموقع الجغرافى وحده بل الى ما يتصف به أفرادها من نزعات حربية ، واقدام ، ومهارة واستبسال فى الشئون العسكرية .

والشايقية هم أبناء شايق بن حميدان [1] بن صبح أبو مريخة وهو الذى تزعم رواياتهم ، أنه هاجر بالقبيلة من بلاد العرب الى السودان . وهم ذوو قرابة وثيقة بقبائل الجميعاب والجوامعة وفروعها ، ويتصلون بالبديرية نوع اتصال وكلهم ينتمون الى المجموعة الجعلية .

وسيجد القارىء فى الملحق الأول فى آخر البحث ، جدولا يوضح العلاقات بين القبائل التى تمثل جزءا من الهجرات العربية الكبرى التى أحدثتها القبائل العربية المهاجرة الى السودان من بلاد العرب من طريق البحر الأحمر فى غضون القرون : الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر.

دخلت هذه القبائل السودان من طريق سواكن ومصوع ، واتجهت غربا وجنوبا صوب نهر النيل . وتمسك البدو منهم بحياة البداوة فتنقلوا فى البلاد الغنية الواقعة بين العطبرة والنيل الأزرق . أما القبائل الأكثر استقرارا فقد استوطنت البلاد الممتدة على ضفتى النيل بين الشلالين

---

١ ــ الانساب التى حصلنا عليها تجمع على هذه النقطة .

الرابع والخامس حيث شغلوا حيزا فاصلا بين المملكتين المسيحيتين فى ذلك الحين ، مملكة علوة الجنوبية ، ومملكة مقرة الشمالية [2] .

كانت هاتان المملكتان ، حين قامتا فى بادىء أمرهما ، قوتين عزيزتى الجانب ، متحدتين . لذلك وقفتا عقبة كأداء فى سبيل الفتح الاسلامى للسودان . ولكنهما لم تلبث الخلافات الداخلية أن فتكت بوحدة كل منهما ، فانقسمت الى عدة طوائف صغيرة متعادية متنابذة ، وذلك يعزى الى الاهمال الذى عانته كل منهما على يد الكنيسة الكبرى التى دانوا لها ، وهى كنيسة الاسكندرية ، فى خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كما يعزى الى انتشار الاسلام السريع .

ولهذا وقعت المملكتان فريسة سائغة فى أيدى العرب . وسرعان ما التأمت روابط العرب فى هذه المنطقة ، بحكم صلات القربى التى تجمع بينهم ، وبحكم روابط الدين المشترك .

وفى نهاية القرن الخامس عشر انضوت هذه القبائل العربية المختلفة تحت لواء قائد واحد ، هو عبد الله جماع ، من عرب القواسمة وشيخ قبيلة العبدلاب ومؤسسها .

وفى بداية القرن السادس عشر تحالفت القبائل العربية المتحدة بقيادة عبد الله جماع ، مع قبيلة الفونج الشبيهة بالزنوج [3] وكانت هذه القبيلة قد قدمت من الجنوب بقيادة ملكها عمارة دونقس ، وصارت ذات قوة ونفوذ فى تلك المنطقة .

تكاتفت جهود هذه القبائل المتحالفة على غزو مملكة علوة المسيحية [4] ،

---

٢ ـ راجع فى تاريخ ممالك النوبه المسيحية كتاب كاترمير :
Memoires Historiques vol. ii

٣ ـ أورد ماكمايكل خلاصة للآراء المتعلقة بأصل الفونج فى كتابه (قبائل كردفان الشمالية والوسطى) .

٤ ـ كانت عاصمتها سوبه على النيل الازرق .

فغزوها وقضـوا عليها [5] ووقعت حدودها ، من أربجى عـلى النيـل الأزرق الى جبال قـرّى[6] فى أيدى العرب .

ففى العقد الأول من القرن السادس عشر ، استولى الفونج على كل البلاد الواقعة فى الجنوب بين النيل الأبيض وحدود الحبشة الى نهر الرهد. فى حين كان العرب الذين خضعوا للفونج سادة على منطقة وادى النيل الممتدة من نهر الرهد الى الشلال الرابع .

أما مملكة النوبة الشمالية ، فقد صارت فى ذلك الوقت فى مأزق حرج . فقد ظلت أعواما طوالا مشغولة فى حروب مستمرة وخصومات مع قبائل البجة فى الشرق ، والفور فى الغرب . ثم جاء الأتراك العثمانيون فغزوها بقيادة السلطان سليم الذى كان قد غزا كل المناطق الواقعة من أسوان الى شلالات حنّك [7] ، واحتلها جميعا .

وخرجت مملكة النوبة الشمالية من ذلك كله مضعضعة قد أنهكتها المنازعات المستمرة ، وقسمها وأضعف شوكتها ذلك الصراع الداخلى الذى وقع بين أمرائها الكثيرين ، وبينهم وبين المسلمين حتى غزتها القبـائل العربية المتحدة بقيادة مشايخ العبدلاب الذين كانوا يعملون لحساب سلطنة الفونج فى سنار .

وسقطت مملكة دنقله ، وتهاوى معها آخر ما خلفته المسيحية فى السودان .

وأقبل أهالى هذه المملكة المنحلة على الاسلام ، وسمح لهم بالبقاء

---

٥ ــ هذا ما أوردته مخطوطة تاريخ سنار (انظر الفصل الثانى) ولكن الاقرب أن انحلال الممالك المسيحية قد حدث ببطء وبالتدريج .

٦ ــ عند الشلال الخامس .

٧ ــ وهى الحدود الشمالية فى الوقت الحاضر لاقليم دنقله ، اعنى الشلال الثالث .

فى بقاعهم ، واندمجوا شيئا فشيئا فى الغزاة حتى صار فى الوقت الحاضر ، من أصعب الأمور أن يميز المرء بين النوبى والعربى .

أضف الى ذلك أنه ليس أحد من أهالى النوبة ، يعترف طواعية بأنه نوبى الأصل ، ولكنهم يتنافسون جميعا فى الدعوى بأنهم ينتمون الى أشرف دماء فى الحجاز [8] .

على أن عدد الذين بقوا فى تلك البقاع كان كبيرا ولا سيما فى الشطر الشمالى من المملكة ، ويدلنا على هذا أن العرب من الغزاة والمهاجرين قد اصطنعوا لغة النوبة ، وأن اللسان النوبى لا يزال حيا الى اليوم ، وأن ما يقرب من ثلثى مديرية دنقله تتخذون النوبية لغة عامة بينهم .

أما أولئك النوبيون الذين رفضوا أن يهجروا دينهم القديم ، فقد هربوا الى جبال كردفان ودارفور حيث ارتدوا سريعا الى حالتهم الأولى من الوثنية والتوحش [9] .

ولم يكد ينتهى القرن السادس عشر حتى كان وادى النيل كله من شلالات حنك الى نهر الرهد قد خضع لملك الفونج فى سنار من طريق مشايخ العبدلاب فى قرِّى .

فى ذلك الوقت كانت مملكة دنقلة قد تضعضعت وانقسمت الى ثلاث دور رئيسية (جمع دار) ، وسميت على أسماء القبائل الكبرى التى سكنت

---

٨ ـ فمثلا سكان المحس النوبيون يزعمون أنهم من بنى أمية .

٩ ـ يتكلم سكان عدد من جبال النوبا فى كردفان لغة تختلف قليلا عن النوبية الدنقلاوية . انظر لبسيوس فى كتابه بالالمانية عن نحو اللغة النوبية (برلين ١٨٨٠) فقد أورد فى المقدمة جداول للمقارنة بين اللغات المستعملة فى جبال كارجو وكولداجى والنوبا وكلفان وبين اللغة الدنقلاوية . وقد رأيت مرة نوباويا من جبل أبو جنود وحدثته بالدنقلاوية . . واستطعت أن أجعله يفهم منى نسبيا . وحصلت منه على مجموعة من الالفاظ وجدت انهـا تختلف اختلافا يسيرا جدا عن تلك المستعملة فى دنقله ـ ولما سألت هذا النوباوى عن أصله أجابنى بأنه من نفس الاصل (واستعمل لفظ (ارج) ومعناها أصل او عرق) الذى ينتمى اليه الدناقله .

فيها . وكانت كل دار منها منقسمة الى عدة رياسات أو ممالك فرعية صغيرة كما يحلو لهم أن يسموها ، كل منها يرأسها أمير خاص أو ملك .

١ ــ فأولى هذه الجماعات ، فى أقصى الشمال ، هى التى أسميها (دار الجوابرة) [١٠] ــ والجوابرة هم أكثر القبائل عددا هناك ــ وهى تمتد من شلالات حنك الى حِلة التيتى ، وتتضمن ممالك أرجــو ، وجزيرة مقاصر والخنّاق .

وكان أهالى هذا الاقليم خليطا ، معظمهم من الجوابرة والنوبة مع

---

١٠ ــ انظر بركهارت فى (رحلات فى بلاد النوبة) ص ١٣٣ ، ١٣٤ حيث يقول : « أما القبيلتان الجوابرة والغربية ، فان الاخيرة فرع من قبيــلة الزناتية الكبرى : استوطنت البلاد الواقعة من أسوان الى وادى حلفا ، وكان من اثر ذلك أن بسطت نفوذها على عدد كبير كانوا قد استقروا على ضفتى النهر فى زمن الغزو العام ، وكان من بينهم الكنوز وهى قبيلة من نجد والعراق. واستوطنت قبيلة الجعافرة الكبرى (وكثير من سكان دنقله (العرضى) الآن ينتمون الى هذه القبيلة ــ المؤلف) ضفاف النيل من اسنا الى أسوان . واستقر قليل من أسر الاشراف فى بطن الحجر وفرض فرع من قريش نفسه على المحس . وكانت النوبة موطن هؤلاء العرب منذ عدة قرون ، وظلوا فى حروب مستمرة مع بعضهم بعضا : وفى أثنائها تمكن ملوك دنقله من الظفر بنفوذ كبير عليهم حتى استطاعوا أخيرا أن يفرضوا عليهم الجزية .

« اما الجوابرة فقد تغلبوا على الغربية تقريبا ، فأرسل الغربية رسلا الى القسطنطينية ، فى عهد السلطان سليم ، وطلبوا مساعدتهم على أعدائهم ، ونجحوا فى اقناع السلطان سليم بامدادهم بقوة تتألف من بضع مئات من جنود البشناق بقيادة من يدعى حسن كوزى وبواسطة هؤلاء طرد الجوابرة واهالى دنقلة من بلاد النوبة ، الى دنقله ، والى يومنا هذا نجد أغنى سكان دنقله ينتمون الى الجوابرة . ومع ذلك بقى بعض أسر الجوابرة فى مواطنها يعيشون فى سلام ، ولا تزال ذريتهم الذين يسكنون فى معظمهم فى الدر ووادى حلفا ، معروفين بأسماء أجدادهم » .

والمركز الرئيسى للجوابرة الآن فى جزيرة بادين ، ويوجد عدد كبير فى الزورات حيث يوجد مختار إفندى عوض ممثلهم الاعلى ، ويوجد عــدد ايضا فى جزيرة سميت فى المحس . ويطلق على الجوابرة فى اللهجة النوبية اسم (جيركى) .

أثر من الكنوز [11] والمهاجرين المصريين . وهنالك أيضا قليل من العرب الذين ينتمون الى مجموعة البجة [12] الساكنة فى الصحراء الى جهة الشرق.
غير أن الأسرة الحاكمة فى أرجو كانت من الحاكماب [13] وهى قبيلة جعلية ، وأطلق على الملك الذى أقام فى أرجو وفى بنّه (ملك الجزر) . وكانت عاصمته فى أرجو ، وكان الى حد كبير أقوى حاكم فى الشطر الشمالى من الاقليم ، يعترف له سائر الأمراء بالسيادة والزعامة .
٢ ــ « دار البديرية » [14] وتمتد من تيتى الى حدود دار الشايقية ، عند جبل الدجر * ، وكان لها أمراء يحكمون فى الخندق ودنقله العجوز

---

١١ ــ بنو كنز فرع من قبيلة ربيعة العربية ، هاجروا من نجد والعراق فى أواسط القرن التاسع واستوطنوا مصر العليا ، وتصاهروا مع الاهالى وصاروا ذوى قوة وصولة فى شئون الحرب . وفى أواخر القرن الثالث عشر غزا سلطان مصر سيف الدين قلاوون بلاد النوبة حتى بلغ دنقله . ويروى أن جموعا من بنى كنز قد صحبته فى هذه الحملة . وفى القرن الرابع عشر هاجم بنو كنز مدينة أسوان ، وسيطروا عليها ، ولكن عرب الهوارة ردوهم مرة أخرى فى بداية القرن الخامس عشر .
وللكنوز فروع أهمها النصر اللاب ، وأبو هور والامنيلاب الذين يقيمون فى البلاد الواقعة بين أسوان والدر (انظر لين بول فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى ص ٢٩ ، ٣٠٨ ، وانظر بركهارت (رحلات فى النوبة ص ٢٦) .

١٢ ــ وهم البشاريون الذين ينتمون الى أصل بجاوى بالرغم من أنهم يفتخرون بانتسابهم الى الكواهله (ابن بطوطه فى وصفه لرحلته الى ساحل البحر الاحمر) .
والبشاريون فى دنقله فى الوقت الحاضر يتمثلون فى قبيلة هاموك الذين يسكنون الصحراء الى شرق ارجو .
١٣ ــ انظر الملحق الاول .

١٤ ــ يقول بركهارت فى : رحلات فى بلاد النوبة ص ٦٣ (بين مدينة دنقله ومروى يوجد واد للعرب يسمى بدير ، ورؤساؤه الى وقت قريب كانوا خاضعين للشايقية) .
* اسم هذا الجبل مختلف فيه بين الباحثين . وقد سماه بعضهم جبل الضيقة ، وهو جبل على الضفة الغربية (اليمنى) من النهر ، ويبدو أنه هو جبل ابن عوف .

وجزيرة تنقسى وأبكور ودَفَّر . وكانت دنقله العجوز أكبر ممالكهم وكانت سائر الممالك بمثابة امارات تابعة لها .

استوطن هذه البلاد البديرية والنوبة ، وسكنت مقاطعات كورتى وأمبيجول قبيـلة الطريفية التى تمت بصـلة قرابة وثيقة الى البديرية (أنظر الجدول فى الملحق الأول) .

٣ ــ وتمتد « دار الشايقية » على طول ضفتى النهر من جبل الدجر الى نهاية مسقط الشلال الرابع ، وتشمل ممالك أربعا ، هى حنك ، وكجبى ، ومروى ، وعمرى .

والمقاطعة كلها يسكنها عرب الشايقية ، وقليل من النوبة يعيشون معهم عيشة خضوع واذعان . وأهل دار الشايقية يختلفون عن أهالى سائر الدور فى أنهم عندما يتهددهم عدو مشترك ، يهبون صفا واحدا لمحاربته ، وقد طرحوا جانبا كل ما بينهم من أحقاد وخصومات ، وبادروا جميعا الى الانضواء تحت قيادة موحدة . هذا بالرغم من أن دارهم مقسمة الى أربع ممالك منفصلة ، وأن ملوكها الأربعة طالما تنازعوا فيما بينهم ، ولكنهم حين يجد الجد كلمة واحدة . وهنا يكمن السرّ فى قوتهم . وقد عجزت ممالك دنقله الأخرى عن تأليف جبهة متحدة ضد أى عدو مشترك فكانوا ينقسمون دائما على أنفسهم ، ولهذا فمنذ أن ظهروا الى حيز الوجود كانوا دائما خاضعين لقوة أخرى أجنبية عنهم .

الفصل الثانى

ضعف نفوذ الفونج فى دنقله

فى غضون القرن السابع عشر أصبح الشايقية قبيلة قوية ذات نفوذ وسلطان . والحق أنهم صاروا من القوة بحيث استطاعوا فى خلال النصف الأخير من هذا القرن أن يشقوا عصا الطاعة على سلطنة سنار وأن يتحدوا العبدلاب والفونج جميعا .

وحانت لحظة الثورة على بلاط سنار ، عندما ثارت المتاعب والخلافات الداخلية فى سنار . ونستدل على ذلك بالفقرة الآتية التى اقتطفتها من مخطوط عربى كتبه لى المرحوم الشيخ ابراهيم الشريفى بعنوان (تاريخ السودان المختصر) : « وحكم (الملك بادى أبو دقن) ستة وثلاثين عاما ثم خلفه ابن أخيه أونسه ود ناصر . وفى عهده ، فى سنة ١٠٩٥ هـ (١٦٨٤ م) وقعت مجاعة شديدة ، حتى أكل الناس لحم الكلاب وتعرف هذه السنة بسنة « أم لحم [١٥] » . وقد هلكت جموع كبيرة من الناس وأمست البقاع الخصبة كلها صحارى جرداء ، بسبب المجاعة وانتشار الجدرى [١٦] .

« وظل هذا الملك يحكم فى سنار حتى أدركته الوفاة سنة ١١٠٠ هـ وكانت مدة حكمه اثنتى عشرة سنة .

---

١٥ ــ هذه التسمية هى من قبيل تحسين المدلول بلفظ يدل على عكس ما يخشى منه ويتشاءم من ذكره . واللفظ هنا معناه السنة الكثيرة اللحم والخيرات !

١٦ ــ انظر الملحق ٣ .

« وخلفه ابنه الملك بادى الأحمر . وكان هذا أول ملك من ملوك الفونج تخرج عن طاعته القبائل التابعة لحكمه ، فثار عليه الشيخ الأمين أرادب ودعجيب وسار اليه على رأس ألف رجل من الفونج وغيرهم ونصبوا ملكا آخر عليهم اسمه أوكل ونادوا بعزل بادى الأحمر » .

كان النير الذى وضعه « السلطان الأزرق » فى رقاب هؤلاء القوم المحاربين المعتزين بأنفسهم أمرا ثقيلا على نفوسهم ، وقد وجـدوا الآن الفرصة سانحة للتخلص منه ، فقام بينهم بطل محـرر يتمثل فى شخص عثمان ود حمد العمرابى الذى استطاعوا على يده أن يحققوا ما كانوا يصبون اليه . ويضعوا دفعة واحدة حدا لهذه التبعية التى جعلت مركزهم شاقا مهينا .

كان عثمان ابنا أمثل من أم مثلى . كانت أمه عديله * فارسة شهيرة فى تاريخ الشايقية ، قد فاقت فى الفروسية وفنون القتال جميع نظرائها من الرجال . تركب فى طليعة الجيش حين يتقدم الى ميدان النزال . وتخوض قلب المعركة حين يحتدم القتال .

وكان وجودها مع المحاربين ، وبسالتها فى الحرب ، أكبر مشجع لهم على الاستماتة فى القتال ، ولقد أحرزت لقبيلتها كثيرا من المعارك التى كان النضال فيها شديدا عنيفا .

يزعم البعض أن عديلة قد سنت للشايقية سنة جديدة ، وهى ما رواه الرحالـون كايو ووادنجتـون وهانبرى [١٧] عن موقعة كورتى من أن الشايقية من عاداتهم أن يجعلوا امرأة تركب فى طليعة الجيش ، لتحرضهم على القتال ، وتعطى لهم الاشارة ببداية المعركة . ولكننى أظن أن هـذه العادة ترجع الى أصول أقدم من هذا! .

---

* يكتبها المؤلف عازلة أو عزيلة .

١٧ ـ فى (رحلة الى مروى) للرحالة كايو ، وفى الرحلات التى كتبها وادنجتون وهانبرى .

وكانت عديلة هى التى حرضت عثمان على ايواء أحد الهاربين من وجه الشيخ الأمين ود عجيب زعيم العبدلاب . وكان هذا اللاجىء الهارب قد فقد ثقة الشيخ الأمين وخشى بطشه وسطوته . وقد أوغر هذا صدر الشيخ ، وكانت عديله بذلك التحريض هى السبب فى اشعال نار الحرب التى أدت الى استقلال الشايقية .

فعندما بلغ ود عجيب أن هـذا الهارب قد اتخذ من عثمان ملجأ ، أرسل الى عثمان رسولا يخيره بين أمرين : اما أن يقتل الهارب أو أن يسلمه اليه فورا . وقد أجاب عثمان على رسالة الشيخ الأمين بجواب ينطوى على اهانة ، اذ رفض أن يقتل اللاجىء وأخبر ود عجيب بأنه اذا كان يريد هذا اللاجىء فليحضر بنفسه ليأخذه ان استطاع .

وأيقن عثمان بالعواقب التى لا مفر من حدوثها والتى تترتب على هذا التحدى ، فرجع الى جزيرة دُلقه [١٨] وتهيأ للقتال .

ولم يتوان الشيخ ود عجيب فى تجهيز جيشه ، فعسكر على شاطىء النيل أمام دلقه وأرسل الى الشيخ عثمان بالتسليم فى مدة لا تزيد على خمسة أيام .

كانت القوة التى تحت امرة عثمان قليلة جدا ، فجعل يعرض خيله للشمس طوال اليوم ، ويعلفها علفا جافا ، ويصبغ جلودها كل يوم بلون مختلف من ألوان الأتربة والكلس ، ثم يرسلها لتشرب من النيل فى وقت الغروب فتتراءى للعدو أسرابا مختلفة من الخيل . وبهذه الحيـلة خدع ود عجيب ، وأوهمه أن لديه من القوة خمسة أضعاف ما كانت عليه فى حقيقة الأمر . ففزع ود عجيب فزعا شديدا ، حتى انه فى اليوم السادس ، الذى كان مقررا أن يحمل ود عجيب فيه على جيش عثمان ، أرسل الى

---

١٨ ــ دلقه جزيرة جنوبى بلدة مروى على مسافة تقرب من سـتة وخمسين ميلا على خط العرض ١٨ر ٥٣ .

عثمان لمفاوضته . وخشى عثمان أن يغدر ود عجيب بجيشه ، فعبر اليه بمفرده ، من طرف الجزيرة ، بعيــدا عن مرأى معســكر العبدلاب ، ومضى حتى وصــل الى الشـــيخ ود عجيب وهو راكب جــواده ، ولم يكن ود عجيب يتوقع هذا الصنيع من عثمان . وكان ود عجيب حينئذ جالسا على الأرض يلعب (المنقلة) مع أتباعه ، (وهى نوع من لعبة الضامة) .

فلما نزل عثمان عن ظهر جواده عثرت قدمه بركاب السرج فبــادر ود عجيب الى أحد أتباعه ، وأسرّ اليه قائلا : « ان الله سلمه الى أيدينا . فأسرع اليه واقتله » .

ولكن شايقيا من أصدقاء عثمان ، كان يجلس فى مجلس ود عجيب ، وسمع ما قاله هذا ، فصرخ قائلا باللهجة الشايقية : « وحياة الرب شرِك أم حبيبة فى رقِيبَك طبْ » ومعناها « أنج بنفسك قبل أن يقع فخ الطير فى رقبتك » . ولم يفهم العبدلاب ما قال الشايقى ، ولكن فهمه عثمان ، وسرعان ما قفز على صهوة جواده ومضى به مسرعا الى ضفة النهر ، وانطلق الى النهر فشق عبابه ، هو والجواد ، حتى بلغ دلقه .

ولم يكن بد من أن يعمل عثمان للقضاء على جيش العبدلاب فى وقت سريع ، فدعا رجاله جميعا ، فجمعوا دوابهم ومعيزهم وماشيتهم ، وكل ما عثروا عليه من القش والحطب .

فلما غربت الشمس ، عبر هو وجنوده وما معهم من الحيوان الى شاطىء النيل بعيدا عن مرأى معسكر ود عجيب .

وجمعوا حيوانهم ، وربطوا على ظهــر كل منها حزمة من القش والحطب . وفى منتصف الليل ، عندما كان ود عجيب وجنــوده نائمين ، سيقت هذه القطعان الكبيرة من الحيوان الى مكان قريب من معسكر الأعداء . وأشعلت النيران فى القش والحطب ، فانطلقت القطعان مجفلة

فى اتجاه معسكر العبدلاب حتى توسطت الجنود النائمين . فأحدثت بينهم ذعرا واضطرابا . وانطلق عثمان ورجاله خلف هذه الكتل المشتعلة وهم يتصايحون صيحات الحرب الرهيبة المفزعة .

وأفلحت هذه الخدعة ، ولاذت جيوش العبدلاب بالفرار متفرقين مشتتين ، تاركين زعيمهم الشيخ الأمين ود عجيب ، وقد أنف أن يلوذ بالفرار ، ففرش فروته [١٩] فى انتظار الموت . ورآه عثمان على هذه الحال ، فوعده ، وهو شاهر سيفه ، أن يعفو عنه ، على أن يضمن له استقلال الشايقية .

وقطع ود عجيب له المواثيق بذلك ، وتأكد استقلال الشايقية منذ ذلك الحين .

هذه هى القصة كما يرويها الشايقية [٢٠] ، ولكن ليس من اليسير أن نعرف مدى صحتها .

ومن المحتمل أن تكون هذه الأحداث قد وقعت حوالى سنة ١٦٩٠ أو قريبا من ذلك . لأن ود عجيب نفسه قتله الملك بادى حوالى ١٧٠٢ [٢١] ولأن الرحالة بونسيه [٢٢] الذى كان فى كورتى فى يناير ١٦٩٩ ، يخبرنا أن منطقة الشايقية لم تكن مأمونة للعبور فيها ، بسبب الثورة التى أعلنها الشايقية ضد ملك سنار . ومن الجائز أن يكونوا فى ذلك الحين يتذوقون أولى ثمار استقلالهم .

---

١٩ ــ توضع الفروة عادة فرشا على ظهر الجواد .

٢٠ ــ رواها لى محمد على بليلو عمدة السواراب ، وهو الحفيد الاكبر للشيخ عبود ، الزعيم المعروف عندهم الذى حارب فى معركة كورتى .

٢١ ــ هذا التاريخ هو ما ذكرته المخطوطة التى اشرنا اليها فى مستهل هذا الفصل .

٢٢ ــ انظر رحلات بونسيه ، الترجمة الانجليزية ص ١٥

نهضـــة الشايقية

فى مستهل القــرن الثامن عشر ، نجد الشايقية ، قد نفضوا عن كواهلهم الولاء والتبعية لسلطنة سنار ، واستجمعوا قوتهم ، وتطلعوا الى الشــهرة ، وكان ذلك أحد العوامل الحاســمة فى تاريخ السودان الشمالى ، فى حين ظلت بقية ولاية دنقلة ، خاضعة لسلطنة الفونج .

فى ذلك الوقت انصرف أمراء الفونج الى متاعب داخلية ، فكانت شغلهم الشاغل . ويتضح هذا من الفقرة التالية التى ننقلها عن المخطوطة الآنفة الذكر :

« ثم فى ذلك الحين (أى فى ١١٣٧ هـ ـ ١٧١٣ م) تولى بعــده أى بعد بادى الأحمر) ابنه « أونسه » فاتبع هواه واستسلم للهـــو واللعب وأفرط فى ذلك حتى انتهى خبره الى الفــونج فى الجنــوب .. فعزموا على عزله .. وذهب عنه سلطانه وكان ذلك فى سنة ١١٣٠ هـ ، وذهبت معه سلطة الفونج وانتزعت من أيديهم » .

« وفى سنة ١١٣٥ هـ تولى العرش الملك بادى أبو شلوخ وكان آخر ملوك الصولة والشوكة ، فلم تكد تنتهى مدة حكمه حتى سيطر مشايخ « الهمج » على أزمة الحكم فصاروا جريا وراء التقليد ، يعينون ملوك سنار ، ولكنهم من الوجهة العملية ، كانوا هم أصحاب السلطة والنفوذ فقد جمعوا كل سلطات الملك فى أيديهم.

« فى هــذه الفترة (١١٧٥ هـ ـ ١٧٦٢ م) اتضعت قوة الفونج وأصبحت السيادة فى أيدى الهمج . وقد كان للشيخ محمد أبو لكيلك النفوذ الأقوى على الملك وقد قتل من زعماء الفونج عددا كبيرا » .

ولما انصرف أمراء سنار انصرافا تاما الى متاعبهم ومشاغلهم الداخلية وهزم الشايقية شيخ العبدلاب ، انصرم ذلك الخيط الضعيف الواهى من النفوذ الذى كان الفونج قد فرضوه على دنقلة من قبل . ولم يكن هذا النفوذ قد استمر زمنا طويلا قبل أن يفلح الشايقية فى تنصيب أنفسهم سادة على ولاية دنقلة بأسرها .

ولعل قولنا « ذلك الخيط الضعيف الواهى من النفوذ » يحتاج الى شىء من الايضاح ، فكثيرا ما نقرأ لمؤرخى عصر الفونج ، وما رواه الفونج أنفسهم للرحالة الأجانب الذين زاروا بلادهم من أمثال بونسيه وبروس وكايو ، أخبارا تلقى فى روع المرء أن الفونج كانوا ذوى السيادة المطلقة على السودان من شلالات حنك الى حدود الحبشة منذ القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر .

وفى رأيى أن هذا الزعم ، بالنسبة الى السودان الشمالى ، وولاية دنقلة بنوع خاص ، هو زعم خاطىء كل الخطأ . فان تلك الروايات التى أخبر بها الفونج على سبيل الفخر والمباهاة ، انما تدلنا على عكس ما يفهم منها . فهى دليل آخر على ذلك الغرور الجامح الذى عرف به الافريقيون * (كذا !!) فليس لدينا أى دليل على أن سيطرة الفونج على دنقلة كانت شيئا خلاف ما زعموا من أخبار هى غاية فى الضعف .

* لقد أساء الينا المؤلف بهذه القالة التى دفعه اليها الهوج والتسرع فى الحكم . ولا أدرى على أى اساس جعل المؤلف صفة الغرور الجامح مختصة بقارة افريقية وسكانها . والمؤلف ها هنا بصدد اثبات أن دنقلة لم تكن تابعة للفونج تبعية قوية . وقد نسى أن أوائل الذين قالوا بهذه التبعية ، ليسوا هم الافريقيين ولكنهم الاوربيون من أمثال بريفيدنت القسيس اليسوعى ، وبونسيه الطبيب الفرنسى . وقد أشار كراوفورد فى كتابه (مملكة الفونج فى سنار : ص ٢٩٤ (هامش) الى هذا ، وبين خطأ رأى المؤلف فى هذا الصدد (المترجم) .

أظن أن الباحثين قد وقفوا وقفة أطول مما ينبغى عند هذه الحقيقة المقررة وهى أن ولاية دنقلة قد أدت لسلطان سنار ، فى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وشطر من القرن الثامن عشر ، نوعا من الجزية (ونحن لا نعرف ما اذا كانت سنوية أو كانت تؤدى بانتظام ، وما هى قيمتها) .

وهذا ، فيما يبدو لى ، ليس دليلا كافيا لاثبات السيادة المطلقة ، ولكنه يدل ببساطة على أن أمراء دنقلة قد أوجسوا خيفة من الأتراك العثمانيين ، وكان لهم كل الحق فى ذلك ، فدفعوا لملوك سنار جزية بمحض ارادتهم ، حتى يجنوا ثمار المودة والتفاهم الذى كان بين الفونج والسلطان سليم . ذلك التفاهم الذى وطد دعائمه الامام السمرقندى بما قام به بين الطرفين من خدمات طيبة . فاذا كان هناك ادعاء بأن دنقلة جزء من امبراطورية الفونج ، فلأن الدناقلة انما أرادوا أن يأمنوا جانب العدوان التركى بما كانوا يقدمونه للفونج من مال هو بمثابة رشوة لهم .

ليس لدينا دليل علــى أن أمراء الفونج قد تدخلوا أى نوع من التدخل فى تولية أمراء دنقلة على اختلافهم ، أو أن أية خدمة عسكرية قد طلب اليهم أن يؤدوها . ولا يشير أى مصدر من المصادر التاريخية الى أنه كان للفونج أفراد أو عملاء يقيمون فى أى قصر ملكى من قصور دنقلة على اختلافها ، أو أن ملوك الفونج قد تدخلوا فى شئون دنقلة الداخلية أو عاقبوا أحدا من الدناقلة لأنه رفض أداء الجزية .

وهذا ، فيما أظن ، دليل كاف على أن دنقلة لم تكن يوما ما جزءا من امبراطورية الفــونج . أضف الى ذلك أن أمــراء دنقلة حين كان الشايقية يهاجمونهم ، لم يطلبوا من الفونج معونتهم .

لم يعزل الشايقية أمراءهم الوطنيين ، بل عينوا عمالا فى كل بلاط ،

كانت مهمتهم أن يجبوا من كل أمير نصف ايراده [٢٣] ، وأخذت جموع من فرسان الشايقية ، يطوفون البلاد من كورتى الى حنـك بقصـد الاغارة والسلب ، فنهبوا وخربوا وأثاروا الرعب والفزع فى نفوس الأهالى . وكان من جراء ذلك التخريب الذى أحدثته هذه الجموع أن هاجرت جماعات هائلة من السكان الى كردفان ودارفور وبربر .

وقد وجد براون الذى زار دارفور فى الفترة التى بين ١٧٩٢ ، ١٧٩٨ ، جالية كبيرة من أهالى دنقلة فى « حلة حسن » بالقرب من القبة ، وفى القبة أيضا . يقول براون : « معظم تجار القبه يفدون من نهر النيل ، والظاهر أنهم هم أول من اكتشفوا الطريق المباشرة التى تصل بين مصر ودارفور . فمنذ سنوات عديدة ، كانت بلادهم التى نزحوا منها ، فى دنقلة والمحس وحدود النيل كلها الى سنار ، وهى بلاد ـ فيما يروى ـ أفضل من دارفور فى جميع الميزات الطبيعية ـ كانت مسرحا للتدمير وسفك الدماء ، فلم يكن فيها حكومة مستقرة ، وكانت الانقسامات الداخلية ـ على الدوام ـ تعمل على تمزيقها ، وغارات الشايقية وسائر القبائل القاطنة بين النهر والبحر الأحمر تلقى الرعب فى نفوس الناس » .

وهناك جالية كبيرة من قبيلة الطريفية نزحت من كورتى وأمبيجول وهى الآن تقطن فى القبه . كما أن هنالك جمـاعة صـغيرة فى قرى (مديرية الخرطوم) . وفى كردفان كذلك كثير من البديرية والدناقلة وكان عدوان الشايقية قد أجلاهم عن دنقلة .

---

٢٣ ـ يقول بركهارت فى رحلات فى النوبة ص ٧١ : وكان عـرب الشايقية ، منذ أن كان لهم نصيب من الايراد ، يأخذون عن الارض التى ترويها السواقى ، أربعة (موريات) من الذرة عن كل ساقية ، ورأسـين أو ثلاثة من الاغنام ، وثوبا من الكتان قيمته دولاران . وكان الملوك الوطنيون يأخذون كذلك مثل هذا المقدار .

ملاحظة : الموريات التى وردت فى نص بركهارت جمع مورى وهـو من المكاييل القديمة يساوى حوالى ثلاث كيلات (المترجم) .

ويروى كايو [٢٤] ان حملة اسماعيل باشا ، حين بلغت مديرية بربر ، وجدت أربعمائة أسرة كانت قد لاذت بالفرار من دنقلة بسبب تعدى الشايقية عليهم .

والظاهر أن الملك الوحيد من ملوك دنقلة الذى قاوم الشايقية هو ملك أرجو ، فقد عبأ جيشا كثير العدد من الجنود المغاربه ، وسار به الى حدود دار الشايقيه .

ونشبت معركة عنيفة عند قاعدة جبل دجر ، وانهزمت جيوش ملك أرجو وقتل منها خلق كثير . وعلى أثر ذلك اشتد نفوذ الشايقية فى دنقلة . وفى أثناء النصف الأخير من القرن الثامن عشر كانت دولة الفونج تنهار انهيارا حثيثا .

وأفلت العبدلاب من ربقة الفونج فلم يجدوا أمامهم سوى الشايقية يثيرون فى نفوسهم الذعر والفزع ، اذ قامت عصائب الشايقية من الفرسان ، بتخريب البلاد الواقعة على الضفة الغربية من نهر النيل حتى واجهوا حلفاية . بل هاجموا حلفاية ، ودحروا العبدلاب [٢٥] .

ويحكى كايو [٢٦] أن أهالى حلفاية ، قبل وقوع غارات الشايقية ، كان عددهم تسعة آلاف ، وبعد وقوعها قل هذا العدد حتى كان فى سنة ١٨٢٢ ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف .

ويقول بركهارت [٢٧] : « قبل أن يصل المماليك الي دنقلة (سنة ١٨١١) ، كان الملك نمر (ملك شندى) فى حروب متواصلة مع عرب الشايقية الذين كانوا قد قتلوا كثيرا من أقربائه فى المعارك ، كما أنهم

---

٢٤ ــ رحلة الى مروى : المجلد الثاني .
٢٥ ــ وتتفق الروايات التى يذكرها العبدلاب والشايقية فى هذه النقطة .
٢٦ ــ رحلة الى مروى : المجلد الثانى ص ١٩٤ .
٢٧ ــ رحلات فى النوبة ص ٢٤٨ .

أغاروا على بلاده عدة مرات ، فى جموع كبيرة من الفرسان ، وتركوا كعادتهم كل الضفة الغربية للنهر خرابا بلقعا » .

وبينما كان الشايقية منصرفين الى تلك الحروب والحملات ، كان العبيد والأسرى من النوبيين يتعهدون أراضى الشايقية بالرى والزراعة .

ومن ثم كانت معظم المصطلحات اللغوية التى تتعلق بالساقية والزراعة عند الشايقية ، ولا تزال الى اليوم ، مستمدة ، بوجه عام ، من اللغة النوبية .

وفى خاتمة القرن الثامن عشر يصبح الشايقية أقوى قبيلة فى السودان الشمالى ، تثير الرعب فى جميع البلاد الممتدة من حلفاية الى حدود المحس .

يقول كايو : « بعد زوال مملكة سنار ، أصبح الشايقية جبابرة فى نظر جيرانهم . وقد عانى أهالى دنقلة وبربر وحلفاية ما عانوه على أيدى هؤلاء القوم الجسورين — قوم نشأوا محاربين نساء ورجالا » .

الفصل الرابع

المماليك

ظل الشايقية أصحاب السيادة المطلقة على دنقلة حتى قدم المماليك من مصر فأحدثوا الصدمة الأولى فى قوة الشايقية .

كان محمد على قد عين واليا على مصر فى ربيع ١٨٠٥ م ، وأخذ منذ البداية فى العمل على القضاء على المماليك أصولا وفروعا ، ومنذ هذا العام حتى عام ١٨١١ ، عندما وقعت مذبحة القلعة الكبرى ، أخذت تتكرر مذابح المماليك فى كل عام .

وهرب عدد كبير منهم من تلك المذابح الى بلاد النوبة . فلحق بهم ابراهيم بن محمد على ، وهزمهم فى وادى قوزتمنه [٢٨] وهو فى منتصف الطريق بين أسوان والدر .

وبعد هذه المعركة ، انقسمت فلول المماليك الى طائفتين احداهما تحت امرة ابراهيم بك وهو الذى كان قد هرب من مذبحة القلعة فى القاهرة ، بأن قفز بحصانه من فوق شرفات القلعة الى الخندق فى أسفلها ، والأخرى بقيادة عبد الرحمن بك ، وهربوا جميعا الى الجنوب ، حتى بلغوا دنقلة . وسارت احدى الطائفتين على امتداد ضفة النهر الغربية يخربون البلاد فى طريقهم . أما الطائفة الأخرى فقد آثرت تقصير المسافة فشقت طريق الصحراء .

والتقت الطائفتان مرة أخرى على ضفاف النيل بالقرب من شلالات حنك فى سنة ١٨١١ ، واحتشدوا حشدا واحدا يبلغ عدده كما قدره بركهارت ، حوالي ٣٠٠ من المماليك البيض ، وكثيرا من العبيد المسلحين،

---

٢٨ ــ بركهارت (رحلات فى بلاد النوبة ص ١٢) .

ويقدر مجمــوع هــذه القــوة المحاربة بما يقرب من ستمائة رجل . أما وادنجتون فقد قدر عددهم بضعفى هذا العدد على وجه التقريب . وأرانى أميل الى قبول تقدير بركهارت .

ولما بلغوا حنك وجدوا محمدا كاشف المحس ، فى قتال مع الملك طنبل ملك أرجو ، الذى كان قد أحس بضغط جنود الكاشف عليه ، فأغلق على نفسه أبواب قصره الحصين القائم على جزيرة تنبس[٢٩] .

حاول محمد الكاشف أن يغرى المماليك لكى ينحازوا الى جانبه ضد الملك طنبل ، ولم يلبث أن اختلف المماليك فيما بينهم فى الجانب الذى ينبغى أن يساندوه . ومع ذلك فقد قر رأيهم أخيرا على أن يقفوا الى جانب ملك أرجو ، فساروا اليه .

وأحب محمد الكاشف أن يقتص من المماليك ، فلجأ الى محمد على باشا يستنجد به .

كان يقيم فى أرجو ، فى ذلك الوقت ، محمود العدلانابى ، أحــد نواب الشايقية ، فأخبره المماليك أنهم ليس فى نيتهم أن يبقوا فى دنقلة ، وانما مروا بها فى طريقهم الى سنار التى عقدوا النية على السكنى بها . وقد أحسن محمود العدلانابى وفادتهم ، وأهدى اليهم كثيرا من الخيول والجمال والعبيد والمؤن .

يقول بركهارت[٣٠] : « بالرغم من أن هؤلاء الهاربين الغادرين لم يكونوا قد مكثوا فى أرجو شهرا ، فقد قتلوا صاحب الفضل عليهم ، بحجة واهية ، وقتلوا معه عددا كبيرا من أتباعه ، ثم بسطوا سلطانهم على البلاد وخربوا ممتلكات الشايقية ، واستولوا على الايراد . وفى أثناء ذلك انضم أحد ملوك أسرة الزبير ، وهى الأسرة الحاكمة فى أرجو ،

٢٩ـ وادنجتون وهانبرى ، فى الرحلات ص ٢٢٥ .
٣٠ ـ رحلات فى بلاد النوبة ص ٦٦ .

الى المماليك ضد الشايقية ، أما عم هذا الملك ، واسمه طنبل بن الزبير فقد سافر الى مصر يطلب معونة من الرجال والسلاح لمحاربة الغزاة الطارئين الذين انضم اليهم فيلق آخر من الشايقية ، يربو عدده على ثمانين فارسا وهم الأعداء الألداء لقبيلة محمود العدلانابى . ومنذ ذلك الحين اشتبك المماليك فى حرب مستمرة مع الشايقية وقتل من الطرفين كثير من الأفراد » .

واستقر المماليك فى حلة مراغة ، وهى على بعد ثلاثة أميال شمالى دنقلة الحالية (العُرضى) ، واتخذوها عاصمتهم ، وبنوا لأنفسهم مبانى منسقة جميلة .

والظاهر أنهم لم يكونوا جميعا سعداء فى موطنهم الجديد اذ يخبرنا بركهارت أن (كثيرا من المماليك ماتوا فى الصيف الماضى من تأثير حمى التيفوس ، التى تتفشى فى دنقلة بانتظام فى موسم الصيف وتقضى على عدد من سكانها . وقد عجز المماليك عن تحمل الحرارة وهم فى ملابسهم الصوف الساخنة ، التى ما زالوا يلبسونها ، ولذلك أقاموا عددا من الأطوافالعائمة على الماء ، يقضون فيها زمن الصيف تحت ظلل من الحصر ، يتولى العبيد ترطيبها بالماء على الدوام) . أضف الى ذلك أن الشايقية كانوا يلقون دائما فى نفوسهم الرعب والقلق بخيالتهم الجريئة المقتحمة .

ومع ذلك فالظاهر أنهم أفادوا البلاد التى حكموها بعض الشىء اذ علموا أهاليها كثيرا من المعارف التى حسنت أساليب الزراعة بينهم ، ويقال ان زراعة القمح تعزى اليهم .

ويزعم وادنجتون أن الجزء من البلاد الذى حكمه المماليك ، كان يروى فيما يبدو بطريقة أحسن من تلك التى كانت متبعة فى سائر المديرية . كما أن سكانه كانوا أكثر تقدما ومدنية . ومع ذلك كانوا

جباة قساة يأخذون من الأهالى ثلث محصولهم ضريبة لهم .

وقد امتد سلطانهم من حدود المحس الى حلة الخندق فى حين كانت بقية المديرية فى أيدى الشايقية .

كانت غـارات الشايقية الذين مرنوا على النهب والسلب تسـاور منطقة المماليك فأحفظهم ذلك وعقدوا النية على مهاجمتهم ، فسيروا حملة فى يناير ١٨١٢ اتجهت من مراغة الى دار الشايقية . وبينما هذه الحملة تشق طريقها كانت فرقة من الشايقية قد عبروا الصحراء من مروى بطريق « محيلة » ، وهاجموا أرجو واستولوا عليها وأوقعوا خسائر بالغة فى ما خلفه المماليك من أمتعة وممتلكات فى مراغة .

وعندما بلغ جيش المماليك خبر اغـارة الشايقية على منطقتهم ، انقسموا الى فرقتين ، فرقة كانت تحت امرة ابراهيم بك ، رجعت الى مراغه ، لتقاوم المغيرين من الشايقية فى حين تقدمت الفرقة الأخـرى بقيادة عبد الرحمن بك الى دار الشايقية بحذاء الضفة اليسرى من نهر النيل . ونشبت معركة فى حلة « حتانى » بالقرب من جبل « تماكه » وهى لم تكن فيما يقال معركة فاصلة [٣١] . وقد عاد المماليك بعدها الى مراغة .

وسواء أكانت المعركة غير فاصلة أو فاصلة ، فان تأثيرها فى الشايقية ، كان مثمرا ، اذ لم تلبث اغاراتهم على منطقة المماليك أن توقفت تماما ، وبذلك استطاع المماليك أن ينصرفوا فى حـرية الى بذل نشاطهم فى تحسين البلاد التى استولوا عليها .

---

٣١ ـ أخبر الملك طنبل ملك أرجو الرحالة وادنجتون أن المماليك هزموا الشايقية فى كريج وقتلوا منهم ١٥٠ شخصا . ثم ذكر طنبل أنه كان فى الحملة وان النصر كان باهرا الى اقصى حد (راجع الرحلات ص ٢٢٨) .
وهذا غير محتمل الى حد كبير ، واخشى أن يكون الملك قد اخذته نشوة التمجيد فأنسته الحقيقة .

الفصل الخامس

الغزو التركي

في سنة ١٨٢٠ تحولت الأحداث الجارية الى وجهة مختلفة . فمما يروى أن محمد على كان يطمح الى الاستيلاء على جميع شواطىء النيل وجزره ، والى السيطرة على كل الذين يشربون من ماء النيـل من بلاد الحبشة الى البحر الأبيض المتوسط .

ففي ربيع ١٨٢٠ عقد النية على السعي في تحقيق مطامحه هذه ، ولذلك جهز حملة تتألف من عشرة آلاف مقاتل مزودين باثنتي عشرة قطعة من المدافع لإخضاع القبائل التي تسكن وادي النيل . وجعـل قيـادة جيشه لابنه الأصغر اسماعيل باشا الذي بلغ من العمـر في ذلك الوقت اثنتين وعشرين سنة .

غادرت الحملة القاهرة في مستهل الصيف ، وكان مماليك مراغة آنئذ قد نقص عددهم بتأثير الحروب والحمى حتى بلغ – على حـد تقدير كايو – ثمانين رجـلا . فما أن سمعوا بحملة القاهرة ، حتى جمعوا في شهر يونيو بقاياهم ، ومعهم عبيدهم المسلحون ، ونفضوا عن أقدامهم غبار مراغة ، وخرجوا يقصدون الى شندي فاخترقوا من بلدة كورتي صحراء بيوضة .

ولما علم الشايقية بخبر رحيلهم ، دبروا لهم كمينا بالقرب من كورتي ليقطع عليهم الطريق مباغتة ، ولكن المماليك كانوا أحرص منهم ، فتنبهوا الى صنيع الشايقية ، وفاجأوهم في مكامنهم ، وأسروا منهم عددا كبيرا ، وقتلوا هؤلاء الأسرى على الفور ثم مضوا في طريقهم الى شندي [٣٢] .

---

٣٢ – وادنجتون وهانبري ص ٢٣٠

ولم يكد المماليك يغادرون منطقتهم ، حتى بادر الشايقية الى مباغتة البلاد التى كان المماليك قد استولوا عليها ، وجعلوا يعملون فيها نهبا واحراقا وتخريبا ، وأسروا عـددا من السكان ، وحملوهم الى دار الشايقية لكى يزرعوا الأراضى ، ويساعدوهم على قتال الأتراك .

ولم يكفوا عن ذلك ويرجعوا الى دارهم الا عندما وصل جيش اسماعيل باشا .

وصل المماليك الى شندى ، وعسكروا خارج المدينة . وظلوا الى أن أمرهم مك شندى ، وكان قد سمع بانتصارات اسماعيل باشا عـلى الشايقية ، أن يرحلوا عن بلاده [33] . فحينئذ تشتت شملهم ، ففريق اتجه الى دارفور ، وفريق الى البحر الأحمر ، وقليل منهم آثر العودة الى مصر من طريق االصحراء النوبية ، حيث يقال ان قبائل البشاريين قتلوهم فى الطريق .

ومنذ ذلك الحين انزوى المماليك عن التاريخ ، ولم نسمع عنهم شيئا .

أما حملة اسماعيل باشا ، فقد كانت مجهزة بعشرة آلاف رجل ، معظمهم من الأتراك والألبان والمغاربة بقيادة عابدين كاشف وحسن دار وسلحدار وعمر كاشف ، ومعهم ١٥٠٠ من البدو بخيلهم وجمالهم يقودهم خوجه أحمد ، وقد لحق به عند أسوان حشد كبير من عرب العبابدة [34] .

مضى اسماعيل وجيشه فى طريقهم دون أن يعترض سبيلهم أحد حتى بلغوا دنقلة الجديدة (العرضى) .

كان أقوى ملوك الشايقية فى ذلك الحين ، الملك شاوس (ويحرف اسمه أحيانا فيسمى شاويش) ، ملك العدلاناب ، وكانت عاصمتهم فى

---

٣٣ ـ وادنجتون وهانبرى ص ٢٣١
٣٤ ـ نفس المرجع ص ٩٣

مروى ، والملك صبير ملك الحنكاب وكانت عاصمتهم حنك .

وكان هناك ملكان آخران أقل شأنا ، هما الملك مدنى ملك كجبى ، والملك حمد ملك العمراب . فلما اقترب الأتراك من بلادهم ، تكتل الشايقية جميعا ، تحت امرة شاؤس وصبير وكان الأول قائدهم .

يقول وادنجتون : « عندما وصل الباشا التركى الى دنقلة ، أصدر أوامره الى الشايقية بأن يعلنوا الخضوع لسلطان محمد على ، فأبدوا اليه الرغبة فى أن ينصرفوا الى زراعتهم وأن يدفعوا له الجزية . فطلب الباشا أن يثبتوا له حسن نيتهم ، بأن يرسلوا اليه أسلحتهم وخيولهم ، فأعادوا عليه قولتهم الأولى . فأجابهم الباشا بأن أباه قد أمره أن ينشىء منهم شعبا من الفلاحين لا شعبا من المحاربين ، وطلب اليهم مرة أخرى أن يسلموه الأسلحة والخيل .

حينئذ أجابوه فى تحد قائلين : « اما أن تذهب لحال سبيلك أو تأتى فتحاربنا » فسير الباشا جنوده الى حدود بلادهم .

كان أول دماء سفكت فى حلة سلقى حيث قتل الشايقية خمسة من العساكر الألبانيين .

وبدأت المعركة بمناوشة وقعت قريبا من دنقلة العجوز حيث باغت فريق من الشايقية الخيالة اسماعيل باشا ، وبعض ضباطه ، وقليل من الجنود ، الذين كانوا قد انفصلوا عن الجيش الرئيسى . ومع ذلك استطاعوا أن يصدوا الشايقية دون عناء .

واصل اسماعيل التقدم بمحاذاة الضفة اليسرى من النيل دون أن يلقى مقاومة ما حتى بلغ قريبا من كورتى . وهنا يروى كايو نقلا عن عابدين كاشف ثانى قواد الجيش التركى ، أن الشايقية قد مزقوا طليعة استكشافية تتألف من مائة من فرسان البدو ، فقتلوا منهم سبعين ، وجرحوا عشرين . وفى هذه البقعة تجمع الجيش الرئيسى للشايقية لصد الغزاة .

وبالقرب من المكان الذى تقوم فيه حلة كورتى الحالية ، وقعت معركة حامية الوطيس ، انتهت بهزيمة الشايقية .

وكان فى صفوف الشايقية فتاة ، تدعى مهيرة بنت الشيخ عبود شيخ السواراب ، تركب جملا مزدانا بالحلى والأدوات الفاخرة ، فأعطت اشارة البدء بالقتال بأن أطلقت الزغاريد ، فاندفع فرسان الشايقية يخوضون المعركة فى قوة ومهارة . وكان هجومهم عنيفا جدا حتى ان البدو والمغاربة الذين تألفت منهم طلائع الجيش التركى ، قد ارتدوا وهم مضطربو النظام الى الجيش الرئيسى .

ووافى عابدين كاشف للانقاذ ومعه خيالته ، وشد على الشايقية ثلاث مرات سريعة متلاحقة ، حتى كبح جماحهم ، وحتى استطاع البدو والمغاربة أن يلموا شتاتهم ويصمدوا للمعركة من جديد . وأصبحت نتيجة المعركة ، فى لحظة من اللحظات ، موضع الشك بالنسبة للطرفين المتحاربين . ولو أتيح للشايقية أن يتخذوا الأسلحة النارية ، ويعرفوا كيف يستخدمونها ، لدارت الدائرة على الأتراك . ولكن الشايقية ، كانوا فى الواقع مسلحين بأشد أنواع السلاح بدائية ، فلدى كل منهم رمحان ، وسيف عريض النصل ، ودرع من جلود وحيد القرن ، وقليل من زعمائهم لبسوا أردية من الزرد ، وملكوا بعض الطبنجات .

عند تلك اللحظة الفاصلة ، أشار اسماعيل باشا الى الجيش الرئيسى فأطلقوا عدة طلقات نارية سريعة ، وكان لها آثار مميتة ، فى حشود الأعداء المتلاصقة .

ولم تعد النتيجة موضع شك ، فقد فر فرسان الشايقية فى هلع ورعب ، أما المشاة منهم ، فقد انبطحوا على وجوههم ، ووضعوا دروعهم على رؤوسهم يتقون بها طلقات العدو ، وابتهلوا اليه أن يرحمهم .

وقد انجلت المعركة عن ستمائة قتيل وجريح من الشايقية ، تسعون فى المائة منهم كانوا من المحاربين المشاة .

وكان المشاة فى جيش الشايقية يتألفون فى معظمهم من النوبيين الذين أسرهم الشايقية فى أثناء غاراتهم المتكررة على دنقلة . وقد وقع عدد كبير من هؤلاء المشاة فى يد اسماعيل ، فأرسلهم الى قراهم .

لقد حارب الشايقية بشجاعة وجسارة عظيمتين ، وحازوا اعجاب أعدائهم . وقد وصف وادنجتون طريقتهم فى القتال فقال : « ان لديهم فى الهجوم جراءة نادرة لا نظير لها ، يركبون الى الأعداء ويواجهونهم مواجهة قريبة ، وقلوبهم تهفو الى اللقاء ، فى خفة وابتهاج كأنهم ذاهبون الى احتفال أو عيد ، ويعلو وجوههم السرور كأنهم يلقون أصدقاء اشتد بهم الشوق الى رؤيتهم بعد طول غياب . فاذا واجهوا العدو بادأوه بقولهم : « السلام عليكم » ـ سلام المنية التى توافى تلك الرماح والتى تعقب هذه التحية مباشرة . وتتوالى الطعنات يعطونها ويأخذونها ، وعلى ألسنتهم تتردد ألفاظ الحب والمودة . هذا الازدراء للحياة ، وهذه السخرية بأشد الأشياء اخافة وارهابا ، هو صفة لازمة لهؤلاء القوم ـ انه الشعب الوحيد الذى يتخذ من الأسلحة لعبًا يتلهى بها ، ومن الحرب رياضة محببة الى نفسه . لا يتطلبون من أعدائهم شيئا سوى التسلية ، ولا يخافون من الموت شيئا سوى انه راحة لأبدانهم .

« وفى هذه السبيل أتيح لهم من البواعث ما أكد عندهم ما توارثوه من شجاعة جرت مجرى الفطرة فى نفوسهم . فقد عاشوا رفاقا ملازمين لخيلهم ، ورماحهم فى أيديهم ، ثم تغيرت حالهم ، فأجبروا على أن يتخلوا عن خيلهم للغرباء ، وأن يستبدلوا برماحهم زحافات لتسوية الأرض المزروعة ، ومقاضب لتشذيب الشجر . وأرغموا على أن يسوقوا الثور حول الساقية بعد أن كانوا يطاردون العدو عبر الصحراء . كان لديهم كثير من النوبيين الذين استوطنوا بلادهم ، واضطرهم الشايقية على أن يقوموا بجميع الأعمال الخاصة برى الأرض وزراعتها ، وكانوا ينظرون الى النوبيين على أنهم دونهم كثيرا فى المرتبة . أما الآن فقد

دعوا الى أن يؤدوا بأنفسهم هذه الأعمال التى تعودوا أن ينظروا اليها على أنها أليق بالعبيد والخدم . وصاروا لا يتوقعون من أحد معاملة أحسن مما كانوا قد تعودوا عليه من قبل . لقد قضى عليهم أن ينحدروا الى العبودية دفعة واحدة ، بعد أن كانوا ، ليسوا أحرارا فحسب ، بل طغاة جبارين كذلك » .

ويقول كايو ان معظم المشاة فى جيش الشايقية كانوا سكارى * ، وأن كثيرا منهم كانوا يلقون بأنفسهم ، فى تهور واندفاع ، على بنادق الجنود الأتراك ، وقد حملوا فى أيديهم أوعية الشراب المسكر ، وبدت على وجوههم علائم السرور كأنهم يشتركون فى احتفال أو عيد .

وذكر وادنجتون أن خسائر الأتراك قد أسفرت عن جرح ضابط واحد وستة عشر جنديا . وهذا قد يصدق على الأتراك أنفسهم ، أما عن حلفائهم من البدو والمغاربة فلابد أن الخسائر بينهم كانت فادحة ، اذ أنهم هم الذين تحملوا معمعان القتال فى هجوم الشايقية . وقد قدر كايو عدد القتلى ثلاثين والجرحى ثمانين وربما كان هذا أقرب الى الصحة .

بعد انتهاء المعركة ، استسلمت قرى البلاد المحيطة ، للخراب والحرائق ، وارتكب الغزاة صنوفا مروعة من الوحشية والفظاعة ضد الأعداء الذين كانوا قد قاوموهم فى شهامة وبسالة .

وأعلن اسماعيل باشا عن مكافأة قدرها خمسون جنيها لكل من يحضر له أذنين لأى شايقى قتل فى الحرب ، حتى يرسل ما يجمعه من الآن الملصقة الى والده محمد على شاهدا على نجاحه الباهر .

وكان من أثر ذلك أن أصبح لا يقف الأمر عند تصليم آذان الذين قتلوا وجرحوا فى ساحة القتال ، بل تعدى الى هؤلاء الأبرياء الذين لم يشتركوا

---

* هل هذا صحيح . فكيف يتفق هذا الكلام مع أقوال الرحالة الآخرين الذين لم يشيروا الى هذه المسألة (المترجم) .

فى المعركة ، ولم يلتمسوا ذلك فى الرجال وحدهم بل فى النساء كذلك . والذين قاوموا منهم ، كانوا اذا لم يقتلوا فورا ، تشوه أجسامهم بصورة مفزعة ، أما القتلى والجرحى فقد تركوا راقدين حيث كانوا ، تنهشهم سباع الطير وتتخذهم طعاما لها .

وفيما يلى نورد فقرة من كلام كايو ، وهى تلقى ضوءا قاتما على ما حدث بعد انتصار الأتراك :

« هرب بعض الشايقية الى أوطانهم ، ظانين أن أعداءهم سيبقون على الرجال العزل — ولكن أملهم كان سرابا ، فقد انتشرت الجنـود الثائرة الهائمة كالسيل الجارف ، تجلب معها ، حيث حلت ، الحرائق والسرقات والمذابح . وحاول الباشا أن يضع حدا لتعدى هؤلاء المجانين ولكن فى غير طائل ، ولا غرو أن كان الباشا مسئولا عن ذلك ، فهو الذى دفعهم أول الأمر الى التمادى فى ذلك ، حين أعلن لهم عن مكافأته لكل من يأتى بآذان الشايقية مصـلمة . فاذا كان بعض الأتراك قد دفعتهم مشاعر انسانية ، فوهبوا الحياة لأحد من هؤلاء التاعسين العاثرى الحظ ، فلم تبلغ بهم الأريحية قط الى الحد الذى جعلهم يدعون الأذنين ملكا لصاحبها . فقد سمعت رجلا يونانيا ، كان طبيب الباشا ، يفتخر بأنه أهدى الى أحد الجنود أذنى فتاة كان قد وجدها مختبئة فى حقل من الذرة ، ويعلن أنه أبقى على حياتها لأنه شعر نحوها بعاطفة ، وأنه ما كان يشعر بمثل هذه العاطفة ازاء النساء الأخر اللائى يكبرنها سنا ، ولذلك كان يذبحهن دون تردد » .

ويؤيد جيوفانى فيناتى * الذى صحب الحملة ، ما رواه كايو من

---

* جندى ايطالى التحق بالجيش التركى وكان من بين المستشارين الذين استعان بهم الباشا التركى فى تنظيم جيشه . وكان فى حاشية ابراهيم باشا حين زار سنار وفازوغلى ١٨٢١ — ١٨٢٢ ، وكان يتكلم العربية بطلاقة ، واعتنق الاسلام وسمى نفسه الحاج محمد (المترجم) .

ملاحظاته ، تأييدا كاملا .

ان الغيظ الذى ملأ نفوس الجنود الأتراك ، لما وجدوه من أعدائهم من المقاومة فى شجاعة وبسالة ، ولتعطشهم الى التخريب ، وطمعهم فى المكافأة ، قد ساقهم الى الغلو المفزع فى التعدى وانتهاك الحرمات .

لذلك لا غرابة فى أن لا يقنعوا بانتصار واحد ، وأن يتمادوا ، وهم يحسون بروح معنوية عالية ، فى النيل من خصومهم بكل الوسائل الممكنة . وكانت كل الدلائل تنطق فى وضوح وجلاء بهذه الحقيقة . يقول كايو : « فان نصف الأهالى الذين التقينا بهم ، وكثير منهم من النساء ، كانوا محرومين اما من احدى الأذنين أو من كلتيهما ، وكان آخرون منهم قد قطعت أطرافهم . أضف الى ذلك أننا التقينا فى طريقنا بعظام وجثث وزرائب كانت طعمة للنيران » . فالواقع أن الاضطهاد الذى حدث ، كان يقصد فيما يبدو الى الابادة والافناء . فالمنطقة كلها قد خربت ، وبذلك استحالت — فى وقتها على الأقل — الى اذعان مكتئب عابس .

فبعد موقعة كورتى خضع واحد أو اثنان من صغار المشايخ الذين حكموا على الضفة اليسرى من النهر ، أما سائر الشايقية وجيوشهم فقد عبروا النهر بزعامة الملك شاؤس واجتمعوا عند جبل دجر حيث قرروا القيام بمحاولة عنيفة فى سبيل الحرية . قام الجيش التركى ، مصحوبا بأسطول يتألف من حوالى ١٥٠ سفينة ، فعبر الى الضفة اليمنى من كورتى وتقدم تجاه جبل دجر . وكان ذلك فى الأسبوع الأول من ديسمبر سنة ١٨٢٠ .

واصطفت جنود شاؤس على منحدرات التل ، تحميهم قصور شاؤس وتحصيناته ، التى وصفها شاهد عيان بأنها كانت تلقى ظلالا مظلمة على جانب التل .

كان الموقع الذى اختاره شاؤس مناسبا الى أقصى حد ، ولو لم يكن هنالك فارق بين الجيشين فى نوع الأسلحة المستخدمة ، لكان من الجائز أن يضمن هذا الموقع لجنود شاؤس نصرا محققا .

ولكن الجموع من سكان القرى الذين ساقهم شاؤس الى الميدان أو أغراهم بالاشتراك فى الحرب ، لم يكونوا يمتلكون الا الأسلحة والرماح والدروع والسيوف ذوات الحدين . وكانوا فى مقدمة الجيش قد تصدوا لرصاص الأتراك يتلقونه ويستنزفونه ، دون أن يقدموا على أية مقاومة ايجابية فى لحظة الهجوم .

أقام الباشا جيشه فى مواجهة الأعداء ، ووضع القسم الأكبر من خيالته قبالة الأرض المكشوفة بين الجبل والنهر ، ودفع بمدفعيته قليلا الى الأمام .

واندفع الأهالى المحاربون الى الأمام وقد رفعوا أصواتهم بصيحات عالية ، ولوحوا برماحهم ، وألقى المشاة بأنفسهم على المدفع ، وما كان فى أيديهم سوى الأسلحة التى أشرنا اليها ، فنسفوا نسفا .

يقول انجليش ، أحد الضباط الأمريكيين ، وكان قد حارب فى المدفعية التركية : « كانت الشجاعة المستميتة التى اتصف بها هؤلاء القرويون التعساء ، تبعث على الدهش . فقد تقدموا أكثر من مرة تجاه فوهات المدافع ، وجرحوا بعض رجال المدفعية وهم يقومون بحشوها بالرصاص. ولكنهم بعد أن أحسوا بآثار قليل من الطلقات النارية ، التى مزقت الخيل والناس أشلاء ، هربوا مذعورين ، تاركين عساكر المشاة وقد داسوهم ، وأخذ فرساننا يقذفونهم بالسيوف يصوبونها الى أسفل حتى قتلوا مئات كثيرة منهم وهم يهمون بالفرار .

«وحين أقول : يصوبونها الى أسـفل ، فذلك لأن السيف الذى استعمله خيالتنا لم يكن يجدى فتيلا ، فقد كان هؤلاء الأعداء من الحذق

والمهارة فى استخدام تروسهم بحيث استطاعوا أن يتفادوا كل ضربة صوّبت نحوها .

« وقد شاهدت فى ميدان القتال تروسا كثيرة فيها ما لا يقل عن عشر فلول أو خمسة عشر من فلول السيوف كل منها ملقى على جثة الميت ، الذى حملها ، والذى كان من الواضح أنه قتل برصاصتين أو ثلاث نفذت الى جسمه .

« وقد أخبرنى الجنود أنهم كانوا ، فى كثير من الأحيان ، يضطرون الى افراغ قرابينتهم (سلاحهم النارى) ومسدساتهم فى جسد رجل واحد قبل أن يسقط على الأرض صريعا » .

ويحكى وادنجتون قصة رجل من الشايقية ، أصابته خمس رصاصات ومع ذلك ظل يقاتل ، ويصيح فى وجوههم قائلا ان فى مقدورهم أن يطلقوا النار ولكن ليس فى مقدورهم أن يصيبوه بأذى . الى أن تلقّى جرحه المميت .

وقد عـزى هذا الاستبسال الخارق ، والحمية العسكرية الى أن فـقـرا * الشايقية قد أكدوا لجيوشهم أن سـلاح الغزاة لن يؤثر فى أجسامهم . وكان هؤلاء الفقرا قد زودوا المحاربين بأكوام من التراب المبارك لكى ينثروه على أجسامهم فيحدث الأثر المطلوب . ومن ثم تقدموا نحو صفوف أعدائهم الأتراك ، وهم الى حالة المتهلل الراقص أقرب من حالة المحارب المقاتل ، تبدو على وجوههم سيماء الثقة المطلقة بالنفس ، والسخرية المفرطة بالأعداء .

ولكنهم أدركوا ، بعد أن دارت رحى الحرب ، أن تلك التعاويذ التى

---

* فقرا جمع غير قياسى مفرده فكى (أى فقيه) ومن معانيها فى اللهجة السودانية المتعبد أو الزاهد وصاحب التعاويذ والتمائم (المترجم) .

أوصاهم مشايخهم بأن يعتمدوا عليها وأن يثقوا فيها ، قد خدعتهم خدعة كانت السبب فى شقائهم وويلاتهم . فأضمروا لفقرائهم شرا ، وعقدوا النية على أن ينتقموا منهم انتقاما مريعا . فما كادت تنتهى المرحلة الأولى من المعركة ، حتى قبضوا على أسرة الفقرا كلها ، وهى أسرة الدويحية ، وقتلوهم عن آخرهم ، بل خربوا القرية التى كانت هذه الأسرة تقيم فيها ، وهى قرية شبَّه ، بالقرب من مروى .

كانت نتيجة هذه المعركة وبالا على الشايقية ، فانكسرت شوكتهم وفنيت الكثرة الساحقة من عساكر المشاة ، أما الخيالة فقد لاذوا بالفرار تحت امرة شاؤس ، ولجئوا الى تلال عَمَرى .

وواصل الجيش التركىّ مطاردة الأعداء الى أن بلغوا جبل برقل ، وهم ينهبون ويحرقون ويقتلون كل ما صادفوه فى طريقهم ، ويخربون البلاد بَعيدها وفسيحها . وكان هذا التخريب الواسع النطاق مخيفا مفزعا . حتى ان الرجال الذين طعنوا فى السن ، والصبية الذين كانوا يديرون سواقيهم فى سلام وهدوء ، لم يفلتوا من أيديهم ، بل مزقوا أجسامهم فى حقولهم ، وتركت مع جثث حيوانهم ، تبلى وتنتن فى وسط مزارعهم المهجورة .

وقد مرَّ وادنجتون خلال هذه الديار ، بعد الذى أحدثه الجيش فيها ، بأسابيع قليلة ، ورسم لنا صورة بشعة مفزعة لما أصابها من الخراب والدمار .

وبعد انتهاء الموقعة بوقت قصير ، أعلن الملك صُبير خضوعه للجيش التركى ، ويعزى هذا الى السبب التالى :

بعد أن دحر الأتراك الشايقية عند جبل دجر ، وقضوا على استحكاماتهم ، حاولت بنت الملك صبير ، واسمها « صافية » ، أن

تشق لنفسها سبيل الهرب من أحد قصور والدها ، فوقعت أسـيرة فى أيدى فرقة من البدو التابعين لجيش الباشا التركى .

وسرعان ما أحضروها بين يدى الباشا ، أملا فى أن يأمر لهم بمكافأة مادية ، فقد كانت « صافية » ، فيما يروى على جانب عظيم من الجمال . ولكن الباشا لم يستغل ما يملكه من حقوق الغزو ، فقد أمر بها أن تلبس فاخر الثياب ، ومنحها كثيرا من الجواهر والحلى ، وحملها على جمل ، ووكل بها حرسا من رجاله الذين يثق بهم ، وردها الى أبيها مكرمة .

ولكن أباها حين رآها مزدانة بحلية تركية ، ومرتدية ثيـابا تركية فاخرة ، خطر له أنها أخذت ثمن خيانتها ، فرفض أن يستردها . ولكنـه لم يلبث أن عـرف الحقيقـة ، فتلقـاها بالترحيب ، وقـرر على الفور التسليم لاسماعيل ، لأنه ، كما يقول ، أصبح لا يستطيع أن يحارب رجلا حفظ له عفاف ابنته .

وقد أعلن التسليم مع الملك صبير عدد من الأمراء الصغار ، وهؤلاء سمح لهم بالعودة الى قراهم .

أما الملك شاوس ، وكان جنديا صارما عنيدا ، فقد رفض أن يسلم وطلب الهدنة ، وعاد بجيوشه الى قرب شندى .

وعسكر اسماعيل بجيشه فى قرية كريمة فى خلال شهرى ديسـمبر ويناير ، حتى يمنح جيشه شيئا من الراحة ، ويعد العدة من المؤن ووسائل النقل استعدادا لحملته التى عزم على تسييرها الى بربر وسنار . وأخيرا ، فى الحادى والعشرين من شهر فبراير سنة ١٨٢١ ، بعد أن جهز جيشـه واستكمل معداته ، عُبر الى الضفة اليسرى من النهر ، واستبقى قـوة تتألف من ٣٠٠ جندى من المغاربة لحراسة المؤن والأسطول الذى كان يتألف من ١٢٠ سفينة ، واتجه ببقية جيشه الى الشرق . فسار من نورى

الى كيربكان ، ومنهـــا مضى عبر الصحراء من طريق جـوره ووادى « دم التور » الى الباقير الواقعة على النيـل فى اقليم الرباطاب (وهى الآن تابعة لاقليم بربر) .

اتجه الباشا من الباقير الى الجنوب وسار بمحاذاة الضفة اليسرى من النيل حتى كان فى مواجهة شندى ، دون أن تصادفه أية مقـاومة ، وفى طريقه أعلن التسليم له الملك نصر الدين ملك بربر،والملك نمرملكشندى، وجميع الزعماء الصغار التابعين لاقليم بربر .

وفى شندى وجد الملك شاؤس ان الاستمرار فى مقاومة الغازى أمر لا طائل تحته ، فعبر النهر فى الخامس عشر من شهر مايو ١٨٢١ ، وأعلن خضوعه للباشا هو ومائتان من جنوده .

فلما قبل الباشا هذا التسليم ، تقدم شاؤس اليه راجيا ألا يحرمه هو ورجاله من أسلحتهم وخيلهم ، وأن يأذن لهم فى أن يظلوا عـــلى جبلتهم التى ولدوا بها ونشأوا عليها ، جنودا محاربين ، وأن يســمح لهم بأن ينخرطوا فى سلك الجندية التركية وأن يقاتلوا تحت لوائه .

وقدر الباشا بسالة هؤلاء الجنود التى قاوموا بها جيشه ، فوافقـه على طلبه . ومنذ ذلك الوقت انضم الى جيش الاتراك فرقة تتألف من ١٤٠ شايقيا بقيادة الملك شاؤس العدلانابى الذى عين « بلوك باشى » *

وقد أثبتت هذه الفرقة الصغيرة دليل الجدارة ، وقدمت عن نفسها فكرة طيبة فى الحروب التى شنها اسماعيل فى سنار وكسلا . ولما رجع اسماعيل من حملاته فى الجنوب وجد العبدلاب قد قاموا بثورة فى أثناء غيابه ، فانتزعت أراضيهم منهم ، ومنح الشايقية هذه الأراضى بصـفة دائمة على شريطة أن يظلوا فى الخدمة العسكرية .

* أى قائد فرقة من (الباشى بوزق) وهم الفرسان غير النظاميين .

وبهذه الحصة من الأراضى ، استولى الملك شاؤس وقبيلتهالعدلاناب على مدينة حلفاية التى كانت من قبل ملكا للعبدلاب . وفى حلفـــاية الى الآن ، تقطن ذرية شاؤس وقبيلته . ومنذ ذلك الحين يبـــدأ تاريخ استيطان طائفة كبيرة من الشايقية فى مديرية الخرطوم ، والسواراب فى « حجر العسل » ، وفى « مديسيسه » ووادى بشـــاره ، والكادنقاب فى « أبو دوم » و « كوداب » و « ود البصل » .

وهنا ينتهى تاريخ الشايقية بحسبانهم شعبا له كيانه ، واندرج فى تاريخ الحكم المصرى فى السودان . واستمرت هذه القبيلة من المحاربين الباسلين ، الذين أثبت الأتراك نشاطهم الحربى حين كانوا أعداء ، وحين كانوا حلفاء ، تقدم دلائل الولاء للحكومة منذ ذلك اليوم الذى أعلن فيه الأمير المحارب شاؤس خضوعه فى شندى ، الى ذلك اليوم المحتـــوم من يناير ١٨٨٥ حين سقطت الخرطوم وزال الحكم المصرى ــ بصـــفة مؤقتة ــ عن السودان * .

---

* هذا تعبير غير دقيق ، فيه ايهام ومغالطة . فالذين حكموا الســـودان فى تلك العهود لم يكونوا من المصريين ، ولكنهم كانوا من الاتراك . ولقد حكم الاتراك مصر كما حكموا السـودان . وعانى الشعب المصرى منهم كما عانى الشعب السودانى سواء بسواء .

والملاحظ أن مؤلف هذا الكتــاب يناقض نفسه مناقضة سافرة . ففى صفحاته السابقة ، كان كل حديثه منحصرا فى الاتراك والكشاف والمماليك وما صنعوه فى السودان . ثم لوى ها هنا زمام القول فجأة ، لهوى فى نفســه ، فوصف حكم هؤلاء الاتراك والكشاف بأنه « حكم مصرى » !!

ولم يعد أحد اليوم ، من سكان هذا الوادى ، يجهل أن الحكم فى ذلك العهد كان قوامه الاتراك ، وأن الذين دبروا هذا الغزو كانوا هم الاتراك .

واذا كان للشعب المصرى نصيب فى تاريخ السودان الحديث ، فهو نصيب الاخوة التى لا يمكن أن تختار أسلوب العنف ، ولا يمكن أن تلجأ الى القوة والسيطرة على الشعب السودانى الشقيق .

لقد كان للشعب المصرى آثار سلمية فى تاريخ السودان وحضارته من علمية واجتماعية ودينية ولم تكن هذه الآثار قاصرة على العهد التركى وحده بل كانت فى جميع العهود التاريخية على سواء . أما الحملات العسكرية التى شنها الاتراك أو شنها الانجليز فيما بعد فان الشعب المصرى برىء منها تماما

(المترجم)

الملحق الأول

فما يلى جدول مختصر لقبائل الجعليين فى السودان ، وهو يبين العلاقات بين الشايقية والقبائل التى تمتُّ اليهم بصلة القربى .

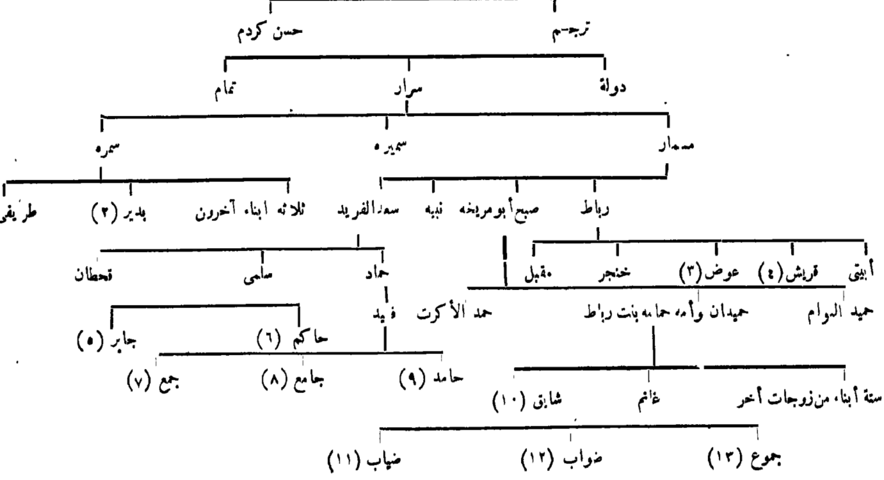
هذه القبائل تسمى « جعلية » نسبة الى جدهم «ابراهيم جعل» وهو من سلالة عبد الله بن عباس الهاشمى . وقد لقب ابراهيم بجعل لأنه كان رجلا كريما مضيافا حتى اشتهر بذلك . *

أما (أبو ديس) الذى نجده على رأس القائمة فى هذا الجدول ، فهو ابن قضاعة بن عبد الله حرقان بن مسروق بن أحمد اليمنى بن ابراهيم جعل .

ومن الملاحظ ان لفظ « جعليين » لم يطلق فى بادىء الأمر على قبيلة بعينها ، بل هو اصطلاح جامع لعدد كبير من القبائل لا تكاد تتصل بصلات وثيقة من القربى ، كما أطلق بصفة رئيسية على الذين سكنوا دنقلة وبربر والخرطوم وأقاليم النيل الأبيض . أما اليوم فان اللفظ بوجه عام يستعمل للدلالة على ذرية « ضـُّواب » .

---

* تفسير هذا الاسم هو أن ابراهيم كان يقول للاهالى الذين ينضوون تحت لوائه (جعلناكم منا) أى أنكم أصبحتم منا أو جزءا منا لكم ما لنا وعليكم ما علينا . فلما كثر ترديده لهذه العبارة اشتهرت عنه ، فلزمت اسمه المترجم) .



أبوديس
ترجم
حسن كردم
دولة
سرار
تمام
سمار
سميره
سمره
رباط
صبح أبو مريخه
نبيه
سعد الفريد
ثلاثه ابناء آخرون
بدير (٢)
طريفى (١)
أبيق
قريش (٤)
عوض (٣)
خنجر
مقبل
حماد
سامى
قحطان
حميد الدوام
حميدان وأمه حمامه بنت رباط
حمد الأكرت
فايد
حاكم (٦)
جابر (٥)
حامد (٩)
جامع (٨)
جمع (٧)
ستة أبناء من زوجات أخر
غانم
شابق (١٠)
جموع (١٣)
ضواب (١٢)
ضياب (١١)

تعليقات على شجرة النسب الواردة فى الجدول :

١ ـ هو جد قبيلة الطريفية .

٢ ـ هو جد قبيلة القريشاب .

٣ ـ هو جد قبيلة العوضية .

٤ ـ هو جد قبيلة القريشاب .

٥ ـ هو جد قبائل الجوابرة والجابراب .

٦ ـ هو جد قبيلة الحاكماب .

٧ ـ هو جد قبيلة الجُمَع .

٨ ـ هو جد قبيلة الجوامعة .

٩ ـ هو جد قبيلتى الحمده والأحامد .

١٠ ـ هو جد قبيلة الشايقية .

١١ ـ هو جد قبائل الرباطاب والميرفاب والناصراب وعبد الرحماناب والفاضلاب والسريحاب الخ ..

١٢ ـ هو جد قبائل الشاعديناب والمكابراب والزيداب والكتياب وقبائل أخرى كثيرة لا تحمل اسم (الجعليين) .

١٣ ـ هو جد قبيلتى الجميعاب والجموعية .

الملحق الثـانى [1]

أبناء شايق وفروع الشايقية

ليس فى القوائم التى فحصتها قائمتان تتفقان فى نسب أولاد شايق . ومع ذلك فهى تتفق من حيث عدد الأبناء ، وهو اثنا عشر . وتتفق كذلك فى أسماء ثمانية منهم وهم : كادنقا ، أم سالم ، نافع ، شـلوف ، حواش ، عون ، سوار ، مريس .

واسم الابن التاسع هو عمارة أو قريش .

وأسماء الثلاثة الباقية تختلف على النحو الآتى :

مرزوق ، صلاح ، شرنبيل .

(ا) قائمة الكابتن جاكسون تجعل الأسـماء باعوض ، مرس ، شرنكو .

(ب) رواية العمدة محمد على بليلو عمدة السواراب ، أنهم عدلان (أو صلاح) ومرزوق وحامد .

(جـ) رواية الشيخ محمد صالح أبو دوم من قبيلة الكادنقاب تجعلهم

كان كادنقا هو الابن الأكبر ، ولكن الروايات تختلف بالنسبة الى نظام تتابع الأبناء الباقين ، ولا أحسب أن الموضوع من الأهمية بحيث يستحق منا أن نفحص الروايات المتباينة التى ذكرت فى القوائم المختلفة .

١ ــ كان لكادنقا ، جد الكادنقاب ، ذرية قوامها ما يلى :

(ا) صالح ، جد الحنيكاب ، وقد أقام فى أوسلى ، حزيمة ، مساوى ،

---

[1] ــ انى مدين فى المواد التى استقيتها فى هذا الملحق للكابتن ا . س . جاكسـون .

القرير ، عمرى (مديرية دنقلة) ، شندى (مديرية بربر) ، العيلفون(اقليم الخرطوم) .

ويتفرع الحنيكاب من المحمـوداب ، والناصراب ، والقـوتاب ، والشريشاب ، والحسناب ، والشلاليل .

(ب) صلاح (١) جد الصلاحاب الذين يسكنون فى زومة ودبيبة ومساوى (مديرية دنقلة) ، وقوز البســـابير (اقليم شندى بمديرية بربر) (٢) وجد الاسوماب الذين يقيمون فى قيـــلى (مديرية الخرطوم) . (٣) وجد العدلاناب الذين يستوطنون حلفاية الملوك وأبو حليمة وقيلى (مديرية الخرطوم) .

ويتفرع العدلاناب الى مروى وكجبى وأولاد على والمناوراب .

(جـ) حامد جد الحامداب الذين يسكنون فى حامداب (مديرية دنقلة) وفى كردوفان حيث يعيشون بدوا رحلا .

(د) عبد الدايم (ويعرف أيضا باسم تـُلبـّن) وهو جد التلابناب الذين يقيمون فى جزيرة تلبناب (مديرية دنقلة) .

(هـ) جورُم جـــد الجورماب الذين يعيشـــون فى تنقسى وبرقل (مديرية دنقلة) وود البصل (مديرية الخرطوم)

(و) زمام جد الزماماب ، وهم يقيمـون فى مروى وبرقل وتنقسى

(ز) حسين جد الكروساب ، ويقيمون فى الكرو (بمديرية دنقلة).

(ح) رغيم جد الرغيمات ، ويقيمون فى ود البصل (بمـــديرية الخرطوم) وكذلك فى مديرية دنقلة .

(ط) كوده جد الكوداب ، ويســكنون فى كوداب ، وأبى دوم ، وقوز نفيسه (بمديرية الخرطوم) .

(ى) مرزوق (ويروى كذلك انه ابن شايق) وهو جـد المرزوقاب الذين يقيمون فى تنقسى وكرو (بمديرية دنقلة) .

(ك) شرنكو جد الشرنكاب والغريراب الذين يقيمون فى برقيلها (بمديرية دنقله) .

(ل) عيسى جـد العيسياب الذين يعيشـون فى نورى والقرابو (بمديرية دنقله) .

وهنالك ولدان آخران من أمة سودانية أحدهما (فرج الله) جد الفرجلاب (ويعرفون كذلك باسم الكراكرة) وهم يقيمون فى الكرو وزوزمه وبرقل وجزيرة التلبناب (بمديرية دنقلة) . والولد الثانى (فرج) جد الفرجاب الذين يسكنون فى كرو (بمديرية دنقلة) .

٢ ـ أم سالم جدة قبيلة أم سالم التى تقيم فى مديريتى النيل الأبيض (بربر) وجدة اليعقوباب الذين يسكنون فى مديرية سنار . وذريتها من الذكور هم :

(أ) بادى جد البادياب الذين يقيمون فى زومه (بمديرية دنقله) .

(ب) كلشوم جد الكلاشيم الذين يقيمون فى زومه (بمديرية دنقله) .

(ج) جاده جد الجداب الذين يقيمون فى عمرى (بمديرية دنقله) .

٣ ـ نافع جد النافعاب الذين يقيمون فى مديرية دنقلة وذريته من الذكور هم :

(أ) غاسين جد الغاسيناب ويسكنون فى الجريف والدويم بمديرية دنقـلة .

(ب) ضيف الله جـد الضيفلاب ويسكنون فى الخنيق (بمديرية دنقـلة) .

٤ ـ اشطوف جد الشطوفاب ويقيمون فى مديرية دنقلة والقضارف بمديرية كسلا . وذريته من الذكور هم :

(أ) حاج محمد جد « الحاج محمداب » ويقيمون فى الجريف بمديرية دنقله) .

(حـ) عمر الجار ، جد البادياب الذين يقيمون فى مَجَل (بمديرية دنقله) .

(ب) على جد العلياب الذين يقيمون فى القرير وكورتى (بمديرية دنقله) .

٥ ـ حواش جد الحواشاب ويقيمون فى أبى دوم وتنقسى (بمديرية دنقلة) وكوداب وكدرو (بمديرية الخرطوم) ، ونسابير (بمديرية بربر) وذريته من الذكور هم :

(أ) مجن جد المجناب فى تنقسى وأبى دوم (بمديرية دنقله) .

(ب) عقرب جد العقرباب فى أبى دوم (بمديرية دنقله) .

٦ ـ عون جد العونية الذين يقيمون فى قلاش ، وكورتى ، والبرصه ، وجزيرة جنيتى (بمديرية دنقله) ، واقليم شندي (بمديرية بربر) . وذريته من الذكور هم

(ا) الغرباوي جد العونية فى جينتى والبرصة (بمديرية دنقله) ،

(ب) زين الدين جد الحسناب فى اقليم شندي (بمديرية بربر) ،

(ج) دوانه جد الدواناب فى اقليم شندي (بمديرية بربر) .

٧ ـ سوار جد السواراب ، أقوى فروع الشايقية وأكثرها عددا ، وهم يسكنون فى القرير وجزيرة والأراك وقنتي ونوري (بمديرية دنقله) ، وصحراء بيوضة ، وحجر العسل ، ومديسيسه ووادى بشاره (بمديرية الخرطوم) والقوز والزيداب وكبوشية (بمديرية بربر) . وأولاده ستة هم : وصيف وجادات وهما من زوجته الأولى ، وحمد الله وحسن تمليك من زوجته الثانية ، وعايد وتمر من زوجته الثالثة .

(أ) وصيف جد الكافوتقا * والزليتاب والزراقنه من اقليم شندى (بمديرية بربر) وصحراء بيوضه .

(ب) جادات جد المشندل فى صحراء بيوضه والقرير (بمديرية دنقله) وحجر العسل ومديسيسه ووادى بشاره (بمديرية الخرطوم) .

(جـ) حمد الله جد الحمدلاب فى القرير والكُرّى (بمديرية دنقله) واقليم شندى (بمديرية بربر) والازيرقاب بمديرية الخرطوم .

(د) حسن تمليك جد التمليك فى الأراك وكورى وموره ، وتكر بمديرية دنقله) .

(هـ) عايد جد العايداب من القرير (بمديرية دنقله) ووادى بشاره (مديرية الخرطوم) وجد العطيّتلاب فى وادى بشاره (مديرية الخرطوم) .

(و) نمر جد العنيناب فى حزيمة وأبى دوم كشابى ، وأبى كليوات (بمديرية دنقله) وحجر العسل (بمديرية الخرطوم) .

٨ ــ مريس جد المريساب فى مديرية بربر وفى أبى دوم (بمديرية دنقله) وله ولد واحد وهو عليت جد العليتاب فى تكر .

٩ ــ قريش جد القريشاب فى اقليم شـــندى بمديرية بربر ويقال ان أولاده ثلاثه :

(ا) أبو دود جد الأباديد فى كريمه ومروى بمديرية دنقله .

(ب) صالح جد الصالحاب فى كريمة ومروى بمديرية دنقله .

(جـ) أبو ناب جد الأبوناب فى كريمة ومروى بمديرية دنقله .

١٠ ــ عامر جد العامراب فى كريمة والكُرّى وعامرى (بمديرية دنقله) . ويروى البعض أنه ابن قريش ، ويروى آخرون أنه ابن عمارة ابن شايق .

١١ ــ باعوض جد الباعوضاب ويعيشون فى عمرى وبرقل بمديرية

---

* يعتقد بعض الشايقية أن الكافوتقا هم سكان دنقلا القدماء .

دنقله ، ويقال أيضا انه ابن شايق وان ذريته من الذكور هم :

(ا) عجيب جد العجيباب فى عمرى وبرقل (بمديرية دنقله) .

(ب) على جد القططية فى برقل (بمديرية دنقله) .

(جـ) محمد خير جد الأمناب فى الركابيه (بمديرية دنقله) .

١٢ ــ مرس جد المرساب فى موره والأراك بمديرية دنقله ، ويروى أيضا أنه ابن شايق وأن ذريته من الذكور هم :

(ا) أبو الحسن جد الحسناب فى الأراك .

(ب) رحمه جد الرحماب فى الأراك .

١٣ ــ شرنكو ويروى أيضا أنه ابن شايق وأنه توفى ولم يعقب .

ويعـد السواراب والكادنقاب ، بلا جدال ، أكثر قبائل الشايقية عـددا وأعظمها أهمية . وكان العونية فيما سبق قبيـلة قوية ، ولكن منازعاتها المستمرة مـع القبيلتين السابقتين ، أدت الى تشتتها ونقص عددها وثروتها . والسبب فى تلك المنازعات هو أن شايق ــ فيما يروى ــ سافر مرة الى دارفور وقدم هدية من الخيل للسلطان تنقار سلطان جبل حريس . فسر بها السلطان كثيرا ، وأكرم وفادة شايق وعامله فى بلاطه معاملة الملوك لمدة عام وزوجه من احدى بناته .

وولد لشايق من ابنة السلطان ولدا سماه سوارا . ولما عزم شايق على الرحيل من بلاط السلطان ، ترك زوجته وولده فى كنف السلطان ، ووعده بأنه سيعود اليهما ليأخذهما معه الى دنقله حالما يهيىء لهما مكانا فيها . ورجع شايق الى دنقله ولكنه لم يستطع العودة الى دارفور . فلما حضرته الوفاة ، دعا بابنه الأكبر ، وأخذ منه عهدا بأن يذهب الى دارفور ويبحث عن سوار وأمه ويحضرهما الى دنقله . وسافر كادنقا الى دارفور ، فوجد السلطان « تنقار » قد مات ، وكان خليفته على السلطنة معاديا للشايقية ، فلم يتمكن من البحث عنهما علانية . وحدث ذات يوم ، بينما كان

كادنقا جالسا فى سوق قرية مجاورة لجبل جريس وكان يأكل بلحا ، أن احتشد جمع من الصبية حوله وأخذوا يتطلعون اليه . فجعل يتسلى بالقاء حبات من البلح الى الصبية ، ومراقبتهم وهم يتدافعون بالمناكب ويتخاطفون البلح . ولاحظ كادنقا أن صبيا منهم قد وقف بعيدا لا يصنع صنيعهم ، فدعاه وسأله لماذا لم يشارك رفاقه هذا اللهو . فأجابه الصبى بأنه غريب عنهم ، ولهذا لم يدخل معهم فى ذلك اللهو . فاهتم كادنقا بأمر هذا الصبى وجعل يسأله حتى استيقن انه سوار . وحينئذ أخذ يعد العدة سرا لابلاغ أمه الخبر ، ثم السفر بهما الى دنقله .

ولما كان كادنقا قد أظهر ازاء هذا الصبى رعاية وعطفا ، فقد أوغر هذا التصرف قلب بقية أبناء شايق : عون وحواش ، فتآمرا عليه ، واختطفا الصبى وأمه وباعاهما بيع الرقيق الى قبيلة عربية تقطن بجوار كورسكو .

فلم يكد كادنقا يسمع هذا الخبر ، حتى اقتفى آثار القبيلة التى اشترت سوارا وأمه . واشتراهما منها وعاد بهما .

أما الصبى سوار فهو جد السواراب ، ولهذا السبب نجم نزاع مرير بين السواراب والعونية : واستمر الى العصور الحديثة . وقد قاسى العونية من جراء هذه المنازعات الشىء الكثير .

الملحق الثالث

«دنقلة فى سنة ١٦٩٨ كما وصفها م. بونسيه»

. . ننقل النبذة التالية من التمهيد الذى قدمته الترجمة الانجليزية لرحلات بونسيه ، وهى مطبوعة فى لندن فى سنة ١٧٠٩ . « مسيو بونسيه طبيب ماهر عاش فى القاهرة . عاصمة مصر . ومن الشواهد الواضحة الدالة على قدرته ومهارته فى فنه أن امبراطور الحبشة ، حين أصابه مرض عضال كان يهدد حياته ، قد اقتنع بأنه أمهر طبيب يمكن أن يتولى علاجه » .

سافر بونسيه من القاهرة فى ١٠ يونية ١٦٩٨ ، يصحبه « حاج على » أحد ضباط امبراطور الحبشة ، والأب تشارلز فرانسيس اكسافيريوس دى بريفيدنت أحد المبشرين اليسوعيين . وقد سافر من طريق منفلوط ، وابناه ، وحلاوى ، وشيب ، وسليمه .

يقول بونسيه نفسه : « فى السادس والعشرين من أكتوبر ١٦٩٨ وصلنا الى «مشو» وهى ميناء طيبة فسيحة تقع على الضفة الغربية من نهر النيل . وفى هذه البقعة ، يؤلف النهر جزيرتين [1] ممتلئتين بالنخيل وأشجار السيناميكى والحنظل . وتقع مشو فى ولاية الفونج ، ومشو هذه هى المكان الوحيد المعمور بين هذه البقعة وحلاوى . وولاية الفونج هذه تابعة لملك سنار وهى أول بلاد البرابرة . ولما عرف الارباب ، وهو لقب حاكم هذه الولاية ، أن امبراطور الحبشة قد أرسل فى طلبنا ، دعانا للذهاب الى أرجوس [2] حيث يقيم . وتشرف هذه القصبة فى مواجهة مشو على الجانب

---

١ ــ هما ارتيقاشا وبولينارتى .
٢ ــ هى ارجوساب وفيها يقيم نسل أمراء أرجو الى يومنا هذا .

الآخر من النيل ، وقد انتقلنا اليها فى قارب . وتلقانا الحاكم بترحاب بالغ ، وأكرم وفادتنا يومين كانا راحة ومتعة لنا بعد أن كنا قد قاسينا متاعب جمة فى رحلتنا . وفى أرجوس أيضا يسكن شيخ الجباة وهو ابن ملك دنقــله .

« ولا يظهر هذا الشيخ أمام الناس الا وهو ممتط ظهر جواده ، وقد تغطى الجواد بمائتين من الأجراس النحاسية الصغيرة التى كانت تحدث مع الحركة صلصلة شديدة ؛ ويلحق به اثنا عشر فارسا ومائتا جنــدى مسلحين بالحراب والسيوف. وقد زارنا فى خيامنا ، حيث قدمت له القهوة وأدى اليه الناس العوائد ، وهى عبارة عن صابون وأقمشة من الكتان . وشرفنا بدعوتنا ، فى اليوم التــالى ، لتناول العشاء عنــده . فذهبنا فى الموعد المضروب . فرأينا قصرا فسيح الأرجاء مبنيا بالآجر . له جدران عالية جــدا ، تحدق به ، على مسافات معينة ، قلاع شامخة خالية من المنافذ ، ذلك أن هذه البلاد لا تستخدم المدافع وانما تستخدم البنادق .

« بعد أن قضينا ثمانية أيام فى مشو غادرناها فى الرابع من نوفمبر ، ووصلنا فى الثالث عشر من الشهر نفسه الى دنقله[1] . وكل البــلاد التى مررنا بها فى طريقنا الى دنقله ، بل التى تقع كذلك على طول الطريق الى سنار ، هى بلاد ممتعة للغاية ، ولكن لا يتجاوز اتساعها ثلاثة أميـــال (فرسخ) . أما ما وراء هذه المنطقة فصحارى موحشة . وينحدر النيل فى خلال هذا السهل الممتع ، له ضفاف عاليات بارزات . ومن ثم لم يكن الفيضان فى هذه التربة هو الذى يجلب الخصب والنماء ، كما يحدث فى مصر ، وانما هو الصناعة والأعمال التى يقوم بها الأهالى . ولما كانت الأمطار تهطل نادرا فى هذه المنطقة ، فقد عنى الأهالى بالسواقى التى

---

١ ـ أى دنقله العجوز .

تديرها الثيران [1] ، لاستخراج مقادير هائلة من الماء تجـرى فى قنوات واسعة فى خلال أراضيهم ، يصنعونها لهذا الغرض . ثم يأخذون منها حاجتهم حين تواتى الفرصـة لرى أراضيهم . ولولا هـذه الطريقـة ، لاستحالت أرضهم قاحلة جرداء .

« والفضة ، فى ميدان التجارة ، لا قيمة لها فى هذه البلاد . فالمعاملة قائمة على تبادل السلع كما كانت الحال فى العصور البدائية . فالمسافرون يقايضون بالفلفل والينسون وحبـة البركة والقرنفل والفراء المصبوغة بالزرقة والعطور الفرنسية والمحلب المصرى ونحو ذلك مما يحتاجون اليه . وهم لا يأكلون من الخبز الا ما صنع من الذرة ، ويصنعون منها نوعا من الجعة الخاثرة لها طعم ردىء للغاية [2] . ولما كانت عرضة للفساد اذا طال بها الزمن ، اضطروا أن يصنعوها طازجة فى كل ساعة . والرجل الذى يمتلك شيئا من خبز الذرة ، وقرعة ملأى بهذا الشراب الكريه الذى يشربونه حتى يلعب برؤوسهم ، انما يعد نفسه سعيدا يجلب لنفسه طربا عظيما .

وبهذا الغذاء الضئيل ، يتمتع الناس هنا بصحة جيـــدة ، بل هم أكثر عافية وأشد قوة من الأوربيين .

« وبيوتهم من الطين ، سـطوحها واطئـة مغطاة بقصب الـذرة ، أما خيولهم فهى حسنة المنظر للغاية ، ومناسبة جدا للركوب .

« وللخيل سُرُج مرتفعة جدا فى مقدمتها ومؤخرتها جميعا ، وهى تتعب الحصان كثيرا .

« والشخصيات البارزة ، حاسرو الرؤوس ، وشعرهم مجدول فى

---

١ ـ كثيرا ما سمعت فى دنقله ، أن السواقى أدخلها الاتراك هناك فى أيام الغزو (١٨٢١) ولكن هذا النص يدل على مدى خطأ هذه الرواية .
٢ ـ المريسة وتسمى عند أهل دنقله مرسيكى .

هيئة حسنة . وكل ما يلبسـونه يتألف من نوع من الثيـاب الرديئـة لا أكمام له . وسيقانهم عارية ولا يلبسون فى أقدامهم الا نعالا مجردة ومثبتة بأربطة .

« وعامة الناس يلفون أنفسهم بثوب من الكتان ، يرتدونه بمائة طريقة مختلفة . والأطفال عراة غالبا .

« والناس جميعا يمتلكون الحراب ويحملونها معهم دائما . ولها فى أطرافها سنان تشبه الصنانير . وبعضها ممشوق للغاية . والذين يحملون منهم السيوف يتنكبونها . والأيمان واللعنات شائعة جدا بين هؤلاء القوم الجهـلاء . وهم الى ذلك قوم غاوون ليس لديهم شىء من التواضـع ولا المجاملة ولا التدين . وبالرغم من أنهم يعتنقون الاسلام فى الوقت الحاضر ، فانهم لا يعرفون منه الا مجرد مراسم شكلية يرددونها فى كل مناسبة . ومما يستدعى الأسى حقا ، ومما هاج الدموع فى عينى صديقى العزيز الأب بريفيدنت ، أن هذه البلاد منذ وقت غير قصير كانت بلادا مسيحية ، وأنها لم تختف المسيحية الا لحاجتها الى رجل كان من الغيرة والحماس بحيث يكرس نفسه للتبشير فى تلك البلاد المهجورة * .

« وفى طريقنا عثرنا على عدد كبير من الصوامع والكنائس ، المخربة نصف تخريب . وقد قمنا برحلات قصيرة من مشو الى دنقله حتى تنعش نفوسنا بعد أن كابدنا تلك الرحلات الطوال التى مررنا فيها خـلال الصحارى .

« وقد نقص عدد سكان هذه البلاد بتأثير الوباء الذى وقع منـذ فترة لا تتجاوز سنتين .

---

* لا حاجة بنا الى القول بأن (بونسيه) يتكلم بوجهة نظره الخاصة . وهو ، كما لا يخفى ، طبيب مسيحى مبشر ينتمى الى الطائفة اليسوعية . (المترجم)

« وكان هذا الوباء عنيفا جدا فى القاهرة فى سنة ١٦٩٦ عندما كنت هناك ، حيث قدمت نفسى لخدمة المصابين ، وقد أكدوا لى أن الناس كانوا يموتون يوميا حتى بلغ عدد الموتى عشرة آلاف .

« وقد وقعت هــذه الكارثة المفزعة فى مصر العليا كلها وفى بلاد البرابرة . حتى اننا وجدنا عدة مدن ، وعددا كبيرا من القرى خالية من السكان ، كما وجدنا مديريات شاسعة ، كانت يوما ما غنية خصبة ، قد أتلفت اتلافا ، وصارت خرابا بلقعا [1] .

« ولم تكد تلوح مدينة دنقله أمام أعيننا ، حتى تركنا قائد القافلة وبادر الى استئذان الملك فى أن يسمح له ولرفاقه بالدخول فى المدينة . فاذن عن طيب خاطر . وكنا حينئذ فى قرية تعد ضاحية لمدينة دنقله ، فعبرنا النهر فى قارب كبير أعده الأمير ليستخدمه العامة . وكل البضائع التى تنقل يؤخذ عنها رسوم ، أما المسافرون فلا يدفعون شيئا . وتقع مدينة دنقله عالى الضفة الشرقية من النيل ، فوق منحدر تل رملى مجدب . وبيوتها مبنية بناء رديئا ، وطرقاتها شبه مهجورة ، معرضة للفيضان يأتيها من الجبل . وقصر الملك فى وسط المدينة تماما . وهو قصر كبير فسيح ، ولكن تحصيناته ضعيفة لا يعتد بها . وهو مبعث رهبة فى نفوس العرب الذين هم سادة هذه المنطقة حيث منحت لهم الحرية فى أن ترعى ماشيتهم فى أرضها على أن يدفعوا جزية ضئيلة للمك ، ملك دنقله .

« وكان لنا الشرف فى أن نأكل مع هذا الأمير عدة مرات ، ولكن كانت مائدتنا مستقلة . وعندما سمح لنا بالزيارة الأولى ، كان يرتدى ثوبا من القطيفة الخضراء سابغا الى الأرض . وله حراس متعددون . فالذين يلازمونه يحملون سيوفا طويلة فى أغمادها . أما الحرس الخارجى

---

١ ــ قارن هذا بما ورد فى الفصل الثانى فى صفحاته الأولى .

فيحملون أنصاف رماح . وقد زارنا هذا الأمير فى خيمتنا ، ولما كنت قد عالجته ببعض الأدوية فأثمر فيه العلاج ، دعانا للنزول فى ضيافته ، فى البلاط ، ولكن لم يكد يعرف ارتباطنا بامبراطور الحبشة ، حتى تسامح فلم يجبرنا على البقاء . والملك وراثى ، وهو يؤدى الجزية لملك سنار .

« رحلنا من دنقله فى السادس من يناير سنة ١٦٩٩ ، وبعد أربعة أيام دخلنا مملكة سنار . وقد استقبلنا الأرباب ابراهيم على الحدود ، وهو أخو وزير الملك الأول . وكان استقباله كريما ، وقام بالنفقات الى أن وصلنا الى كورتى وهى بقعة طيبة على النيل حيث كان فى صحبتنا . وقد بلغناها فى الثالث عشر من يناير .

« ولما كان الأهالى الذين يقيمون عبر مدينة كورتى ، على نهر النيل[1] قد أعلنوا الثورة على ملك سنار ونهبوا القوافل التى تمر خلال بلادهم ، اضطرت القوافل الى أن تشق طريقها بعيدا عن ضفاف النهر ، وأن تتجه فى مسيرها بين الجنوب والغرب[2] لتخترق صحراء بيوضة الكبرى التى يستغرق اجتيازها ما لا يقل عن خمسة أيام مهما يتخذوا من السرعة . وهذه الصحراء ليست موحشة كصحراء ليبيا حيث لا يجد المرء فيها الا الرمال . ففى صحراء بيوضة يلتقى المسافر من حين لآخر بالحشائش والشجر . وبعد أن عبرنا الصحراء التقينا مرة أخرى بالنيل عند الضريرة[3] وهى قرية هامة ، حيث استرحنا بها يومين . وهذه بلاد وافرة الخصب . ومن المحتمل أن وفرة خصوبتها هى التى جعلت السكان يطلقون عليها اسم « بلاد الله » .

« وغادرنا البلاد فى السادس والعشرين ، وانعطفنا جهة الغرب . ولم

---

١ ـ يعنى الشايقية .
٢ ـ ينبغى أن يكون الشرق بدلا من الغرب .
٣ ـ فى مديرية بربر ، باقليم شندى .

نجد فى طريقنا أثرا لقرية ما ، ولكن السكان الذين يقيمون فى خيام ، يمدون المسافرين بما يحتاجون اليه . وبعد مضى بضعة أيام فى رحلتنا ، التقينا بالنيل مرة أخرى قريبا من قرّى . وهناك يسكن أحد الحكام [4] ، ومهمته الرئيسية هى فحص ما اذا كان فى القوافل التى ترد من مصر أى شخص مصاب بالجدرى لأن هـذا المرض ليس أقل خطورة ولا أقل تدميرا فى تلك البلاد من الطاعون .

« وقد أظهر هذا الحاكم نحونا مجاملة خاصة ، تقديرا لعرش الحبشة كما تدل على ذلك عباراتهم عندما كانوا يذكرون ذلك الامبراطور . وقد أعفانا من الحجز فى المحجر الصحى الذى كانوا يتخذونه عادة فى ذلك المكان الذى هو معبر للمسافرين فى النيل » .

---

٣ ــ فى الكوداب ، وهى فى مواجهة قرى ، وتقع عند الشلال الخامس .
٤ ــ أحد شيوخ العبدلاب .

محتويات الكتاب

صفحة

مراجع البحث

1. تاريخ السودان لنعوم شقير
2. ابن بطوطة ـ رحلته
3. مخطوطات عربية عن تاريخ السودان المختصر.

4. Browne, W. G. — Travels in Africa, Egypt, and Syria, 1792 —8 (London 1799).

5. Bruce, J. — Travels to discover the Source of the Nile, 1768 - 73 (London, 1805).

6. Budge, W. — The Egyptian Sudan.

7. Bruckhardt, J. L. — Travels in Nubia. (London 1819).

8. Cailliaud — Voyage a Meroe.

9. English, G.B. — Narrative of the Expedition to Dongola and Sennar under Ismael Pasha. (Boston 1823).

10. Lane—Poole. — A History of Egypt in tha Middle Ages.

11. Lepsius — Nubische Grammtik.

12. Poncet — Jcurney to Eethiopia.

13. Quatremere — Memoires Historiques sur l' Egypte.

14. Russel — Nubia and Abyssinia.

15. Waddington and Hanbury, — Travels in Ethiopia.


مطبعة مصر
شركة مساهمة مصرية
الخرطوم


0238251